المقتطف

الجزء الأول من المجلد الحادي عشر بعد المئة

١٥ يوليو سنة ١٩٤٧ — ٢٦ رجب سنة ١٣٦٦

ماثر العرب
على الحضارة الحديثة

١ — غلق مدارس أثينا

على كثرة ما وقع في عصر يوستنيانوس من الاحداث فان أعظم هذه الاحداث جميعاً من وجهة النظر العلمية والاجتماعية، حدثان: الأول غلق مدارس الفلسفة في أثينا، والغاء نظام القنصلية الروماني. فان ما خلفت هذه المدارس من الأثر في عالم الفكر وما خلق ذلك النظام من أثر في عالمي السياسة والتشريع، وما ينطوي وراءهما من تقاليد القرون العديدة، يجعل لهوهما تلك القيمة الكبيرة التي نعزوها إليه. وليس لنا أن نتكلم هنا في شأن نظام القنصلية الروماني، ونقتصر على الكلام في غلق مدارس أثينا.

ظلت مدارس أثينا موضع عناية العقلاء والفضلاء من أمراء الرومان، ومضت مستظلة بحمايتهم أزماناً طويلة. ولقد أسس الامبراطور « هدريانوس » في أثينا مكتبة جامعة عيد لها مكاناً خاصاً وزينه بالصور والتماثيل، وسقفها برخام الالباستر الجميل، ولقد أقام ذلك البناء في صورة شرفة واسعة الجنبات يحملها مئة عمود من الرخام الفروغي. وخصص الامبراطوران من آل أنطونيز مرتبات سخية للقائمين على هذه المدرسة، فكان مرتب كل أستاذ في السياسة أو الخطابة أو المذهب الأفلاطوني أو المذهب المدائي أو الرواقية أو الأبيقورية نحو اثني عشرة آلاف دراخمة (حوالي ٣٠٠ جنيه مصري). فلما وقع عرش

أوريليوس أنطونينوس ألغيت هذه المخصصات ثم أعيدت ، ثم ألغيت ثم زيدت ، بحسب أهواء الامبراطور القائم وبحسب الحالة الاجتماعية والفكرية التي تناوبت الامبراطورية الرومانية . ولقد بلغ حال تلك المدارس من الاضطراب مبلغاً كبيراً في حكم خلفاء قسطنطين

ولقد نعلم أن أصلحة القوط وجيوشهم قد دمرت الجزء الاكبر من حضارة أوربا . ولكن هذه الأصلحة المدمرة كانت أقل أثراً في هدم مدارس أثينا من انتشار دين جديد في جوف الامبراطورية الرومانية . فان رجال النصرانية قد ألغوا العقل وأحلوا محله حكم النقل والايمان المطلق ، وألقوا بأولئك الذين اعتبروهم كفرة أو من أهل الشك الى النيران تأكلهم وتذهب بريحهم . وعمدوا فضلاً عن ذلك الى مجلدات ضخام خلوا فيها على كل ما خلق عقل القدماء من آثار الحكمة والعلم يرمونه بالمروق والارتداد والكفر . ذلك بأنهم اعتبروا تلك الآثار من المحرمات التي تسمّم عقول المؤمنين .

على ان البقية الباقية من الفلاسفة الافلاطونيين حتى عهد يوستنيانوس ، كانوا قد انحدروا عقلياً الى درجة كبيرة ، حتى انهم مزجوا ذلك المذهب الارسطي الروحاني بكثير من الخرافات وغلّفوه بالأساطير والسحر . وفضلاً عن ذلك فان بقاءهم على وثنيتهم في قلب دنيا نصرانية ، قد ولّد الشك تلقاءهم في قلوب الحكام والأمراء ، حتى لقد ظنّ أنهم قد يعملون سرّاً على الاضرار بمصالح الدولة .

بعد موت الامبراطور يوليان بقرن كامل دعي « إفروقلوس » ليلقي دروس الفلسفة في الاقاديميا . ولقد بذل في هذه المهمة أقصى الجهد ، وأثمر أعظم الثمرات ، فتناول في دروسه فلسفة الأخلاق والالهيات وما بعد الطبيعة ، وكان مما تناوله من البحوث انه وضع ثمانية عشرة قضية منطقية ينقض بها قعة الخلق النصرانية . ولكنه الى جانب هذا كان يدعي القدرة على الاتصال بالملة وثنية ، ويقول علناً انه محيط بالكثير من أسرارهم . وحدث خسوف في أواخر عمره ، فكان ذلك عنده نذير باقتراب ساعته ، فلما مات جمع بعض تلاميذه كل ما خلفه من أوراق ، وكذلك كل ما كتب حواريّه « إزيدور » ، واحتفظوا بجميع ذلك ليكون للاخلاف من بعدهم دليلاً على ما وصل إليه العقل اليوناني إبان ذلك الزمان من انحطاط وتطوح مع الوهم والأساطير .

غير ان « السلسلة الذهبية » ، سلسلة الفلاسفة الافلاطونيين كما كان يدعوهم القدماء ، ظلت متصلة أربعين سنة بعد موت « إفروقلوس » حتى أصدر يوستنيانوس أمره الامبراطوري بأن يصمت آخر لسان تحرك بقضية فلسفية في جنبات المدارس في أثينا ، والاقاديميا على الأخص .

كان آخر هذه السلسلة سبعة من الفلاسفة جمع بينهم العلم وألفتهم الصداقة هم : ديوجينيس [١] وهرمياس [٢] وأولاليوس [٣] وإفر سقيان [٤] ودمسيقيوس [٥] وإزيدور [٦] وسمبليقيوس [٧] ، لم يرضوا الارتداد عن دينهم الى دين أميرهم فراحوا يهاجرون الى بلاد أجنبية لعلهم يجدون فيها من الحرية ما أنكره عليهم بتو جلدتهم.

كانوا قد سمعوا ، أو ترامى إليهم زوراً ، إن جمهورية أفلاطون قد طبقت عملياً في بلاد فارس ، وأن ملكها الحر العالم قد أقام العدل وعضد الفضيلة في تلك البلاد الحرة السعيدة . فلما وفدوا إلى بلاط كسرى الذي أشيع عنه أنه فيلسوف وعالم ، ألفوا الأمر على عكس ما قد صورته لهم مخيلتهم ، فقد صدمتهم حقائق الحياة الانسانية ، فقضوا أعمارهم في سلام ، وخلفوا الدنيا بغير جلبة ، وانحدروا الى جوف الزمن ومعهم آخر ما خلفت الأقدمين من الآثار الدنيوية .

وكان ذلك أول اتصال للشرق بعلم الاغارقة الذي نهل منه العرب.

٢ — الحضارة العربية

تفرد العرب في العصور الوسطى بأن كانوا حفظة المدنية والقوامين عليها . كذلك استطاعوا أن يقاوموا تلك الهمجية التي اجتاحت أوربا وهزتها من الأعماق وزلزل قواعدها النابتة توالي الهجمات الحربية والمغازي التي شنتها طيها شعوب الشمال . وفي ذلك الوقت ، وفي خلال هذه الفوضى الغامرة ، عكف العرب على ثمرات العقل الأغريقي يحيون منه ما أماتت الهمجية . ذلك بأن العرب لم يقنعوا بما اجتمع لديهم من ثروات العالم الذي دان لسلطانهم ، بل عمدوا الى سبل العلم والمعرفة يفتحون بها ما استغلق من قضايا العقل ، وما استكن من أسرار الطبيعة .

إن حروب الغزو التي شنها العرب عقيب انتشار الدعوة ، وهي حروب خلت تخللها شيء من الانشغالات المدنية ، قد ظلت قائمة خلال القرن الأول من التاريخ الاسلامي متوجة بأعظم الانتصارات . وحتى سنة ٧٦٠ م ، وهي تاريخ سقوط الدولة الأموية ، لم تظهر في حياة العرب بادرة تدل على أن تلك الفترة الحربية ، بما يقع في أثنائها من فوضى وارتجاج ، سوف يعقبها عهد تكون أجلى مظاهره الحضارية ، نهضة عقلية ارتقائية النزعات .

في ظل الدولة العباسية بدأ عهد من الترقه المدني أخرج العرب من خشونتهم التي

(١) Diogenes (٢) Hermias (٣) Eulalius (٤) Priscian (٥) Damascius (٦) Isidor (٧) Simplicius

عرفوا بها في العصرين الجاهلي والاسلامي الأول ذلك بأن خلفاء العباسيين قد ظاهروا حركة التثقيف بعنايتهم وأمدوها بسلطانهم فأثمرت سراعاً وآتت أكلها ، نشحذت الأذهان بمختلف المعلومات ، ونقل إلى العربية مؤلفات وكتابات ، كانت أساساً لأخرى قامت عليها واستمدت منها ، حتى أصبحت العربية مصدر الدرس والبحث في الشرق وفي كل مكان استظل بسلطة العرب.

وللخليفة العباسي أبو جعفر المنصور يرجع الفضل الأول في حفز الهمم وتنبيه الأذهان الى دراسة العلوم الصحيحة . ولقد ورث العرب نزعة قوية الى علم الفلك ، فإن كل الأمم البدوية التي تعيش تحت سماء صافية لامعة النجوم . حفزهم الى ذلك البيئة والضرورة . ولكنهم رغم ذلك لم يكن لهم تقويم زماني يرجعون إليه حوادث أيامهم وحياة رجالهم ودولهم ، وإنما اتخذوا السنة القمرية وسيلة الى معرفة الأشهر ، لما للأشهر عندهم من علاقة ببعض التقاليد والعقائد . ولم يصح للعرب تقويم يحدد أحداثهم إلا من بدء الهجرة . غير أن ذلك التقويم كان سبباً فيما أبدوا في عصور حضارتهم من حب لعلم الهيئة وعكوف عليه .

قال اسكندر فون همبولد :

« كان العرب بطبعهم ذوي كفاءة لأن يؤدوا دور الوسيط الأمين في تكييف عصر من عصور الحضارة تأثر به كل الأمم التي عاشت في تلك المنطقة الشاسعة الواقعة بين الفرات والوادي الكبير (في الأندلس) والجزء الجنوبي من وسط افريقية . لقد كان للعرب نشاط لا يباري دمغ عصراً من عصور التاريخ بطابع ثابت لا يمكن محوه . كذلك كان لهم نزعة تسامحية عريقة في الحرية ، مناقضة تمام المناقضة لنزعة اليهود التعصبية ، فاختلطوا بالشعوب التي غزوها من غير أن تعود بهم الذكرى يوماً الى أمم الفاتحين أو الى تفوقهم القومي أو الى تقاليدهم التي خلفوها من ورائهم في صحاريهم ، بالرغم من تأثرهم بمختلف البلاد التي غزوها والأراضي التي نشروا عليها سلطانهم . وبينما نرى أن السلالات الجرمانية لم تستطع أن تستوعب اللغة البولندية الا بعد زمان طويل من هجرتهم ، فان العرب قد نشروا ، مع دينهم ، لغتهم المثقلة بتراث خالد من الشعر لم تبل جدته ولم تتخلخل أصوله ولم تضعف روحه ، حتى بعد أن تجاوبت به أنحاء « روقانس » في بلاد الاندلس .

٣ — التجارة وأثرها في الثقافة العربية

فإذا فطن مؤرخو الفكر العربي الى ما كان للتجارة وانتشار المستعمرات العربية من أثر في الثقافة الاسلامية ، فإن الامبراطورية التي شادها الخلفاء ، باتساع أرجائها وما حوت من ضروب الغنى وصنوف الثروة ، وما أفادت من مختلف الأقاليم والأجيال والأمم ، وما

مخطوطة عربية في مختلف العلوم والفنون والآداب. هذا في مدينة واحدة، فما بالك بما حدث في بقية أطراف ذلك العالم الاسباني الفسيح.

٤ — من آثار الحضارة العربية

لقد أثبت منصفو المؤرخين للعرب من الآثار الحضارية بذمة نواح كان لها القدح المعلّى في رفع مستوى الانسان إلى آفاق بعيدة المدى قصية الغايات. وإذا كان من الحق أن العرب لم يكونوا أول من ابتكر بعض هذه الآثار المادية، فلا ينبغي أن ينكر عليهم فضل إنهم كانوا أول من أخرجها من محابسها وانتزعها من بيئتها، ونشرها في أنحاء العالم المتحضر. فان هذه الأمة العربية التي نشأت في محيط صحراوي، لم تكد تخرج من محيطها وتختلط بآثار الحضارة الرومانية، وهي وريثة الحضارات القديمة، حتى أكبت على الزراعة والاستقرار في المدن وفي الأودية الخصيبة، فرفعت من مستوى تلك الصناعة وأضافت اليها من ابتكاراتها ما جعل من العالم العربي جنة متصلة النواحي، وجعلت من اقفار التي خربوا الهمج في خلال أربعة قرون، من القرن الثالث الى السابع الميلادي، مراعي نضرة، ومزارع مثمرة وغابات ملتفة وحدائق دانية الثمرات.

على أنهم الى جانب ذلك قد استكشفوا في العالم القوات التي حفّ بنهضتهم تلك، ثمرات حضارية ظلت مقصورة النفع على بيئاتها التي نشأت فيها، فتناولوها بالتهذيب، ورفعوا من شأنها، وراحوا ينشرونها أينما حلوا وحيثما كانوا، وفي جميع الآفاق التي استظلت بحضارتهم المجيدة. من هذه الثمرات الانسانية على كثرتها، ثلاثة أشياء كان لها أكبر الأثر في رفع مستوى الحضارة في جميع العصور: هي الورق والبوصلة والبارود.

استند بعض المؤرخين على كتابات يغلب إنها مزيفة مدخولة بالتدليس، تنسب شرف استكشاف هذه الأشياء إلى أهل الصين، محاولين بذلك أن يسلبوا العرب حقهم التاريخي فيها. يقول المنصفون إن الصينيين عرفوا صناعة الطباعة منذ القرن الثامن. غير ان أشياء جوتنبرج وفوست وشوفر قد انتزعت منهم ذلك الشرف. فاذا كان العرب قد نقلوا عنهم مادة الورق، وهي من أخص ما يتصل بالطباعة، ألا يكون من المعقول أيضاً ان يكونوا قد نقلوا عنهم الطباعة أيضاً؟ وماذا نقول في الذين يدعون بأنهم أخذوا عنهم البوصلة أيضاً وقد ظل أهل الصين إلى سنة ١٨٥٠ يعتقدون إن في القطب الجنوبي آلهة ملهب تتلظى ناره؟ أما البارود، فإن كان قد ثبت لأهل الصين حقهم التاريخي فيه فانهم لم يستخدموه بنفس الاسلوب الذي استخدمه به العرب.

ولا يفوتنا ان نذكر أنه في حصار مكة سنة ٦٩٠ م . استخدم المحاصرون نوعاً من القنابر ، وان البارود استعمل في مصر في خلال القرن الثالث عشر لرمي قذائف مسافات بعيدة فتحدث صوتاً كأنه الرعد . ولقد ذكر ذلك أيضاً في وصف وقعة بحريّة بين ملك تونس وأمير أغبيليّة في القرن الحادي عشر ، وذكر في القرن الثالث عشر (سنة ١٣٠٨) في حصار جبل طارق ، وسنة ١٣٢٤ في حصار بايزه . كذلك استخدمه الملك اسماعيل ملك غرناطة سنة ١٣٤٠ ، والجزائريون سنة ١٣٤٢ ، ويؤخذ من وصف أهل فرّارة ان القنابر كانت تقذف بالبارود.

ولقد نقل أهل أوربا هذا الاستكشاف عند احتكاكهم بالعرب ، وأخذت جيوشهم تستخدم المدافع . ولو ان أهل أوربا هم الذين وصلوا الى هذا الكشف ، اذن لعثرنا في آثارهم على أقوال أو اشارات تدل على الخطوات التي تدرج فيها عندهم وتاريخ هذه الخطوات . ولكن الأمر على العكس من ذلك . فانك مهما استعمقت في بحث تاريخ العصر الذي استخدم فيه أهل أوربا هذه المادة ، فانك لا تعثر على أثر من تاريخ نشوئها عندهم . ومع هذا يحاول بعض المؤرخين نسبتها إلى أهل أوربا ، بالرغم من ان العرب استخدموها منذ نهاية القرن السابع الميلادي .

أمّا البوصلة فليس هناك أي دليل تاريخيّ على أن أهل الصين قد استخدموها في الملاحة . في حين يتصل بنا أنّ العرب أخذوا يستعملونها منذ القرن الحادي عشر الميلادي لا في الملاحة البحرية فحسب ، بل في سياحات القوافل عبر الصحراوات ، وفي تعيين سمت القبلة لتعيين اتجاه مكة تعييناً دقيقاً .

وكذلك كان الأمر في الورق . فعند منتصف القرن السابع الميلادي (٦٥٠ م) كان ورق الحرير من منسوجات سمرقند وبخارى . وفي سنة ٧٠٦ م فكر يوسف المكّي في أن يستبدل الحرير بالقطن في صناعة الورق ، فأخرج بذلك الورق الدمشقي الذي وصفه مؤرخو الأفارقة . وفي إسبانيا شاعت صناعة الورق من البكتان والقنّب وشيدت لصناعته المعامل الواسعة ، وتنافست في اخراج مختلف أنواعه وضروبه كثير من المدن الأسبانية وفي مقدمتهم بلنسية . وفي القرن الثالث عشر استخدم الورق العربي في قشطالة ، ومن ثمّ انتقل الى فرنسا وإيطاليا وانجلترا والمانيا ، وما يشهد للعرب بمهارتهم في هذه الصناعة ، كشهادة مخطوطاتهم القديمة وقد خلفوها في ورق صقيل متين مُرَيَّشة بضروب من الزخرفة هي موضع إعجاب العالم الى الآن .

فلا عجب إذن إذا نزع منصفو المؤرخين في العصر الحديث الى الاعتراف بفضل العرب

وفضل ثقافتهم على جميع المرافق الحضارية التي هي أعظم مظاهر المدنية الغربية . فانه في خلال الفترة الواقعة بين القرنين التاسع والخامس عشر ، لم تحظ الحضارة الغربية حضارة واحدة نحو الامام إلا بفضل ميراثهم عن العرب ، سواء أفي الناحية المادية ، أم الناحية الثقافية، كالفنون والعمارة والهندسة والآداب والعلوم .

٥ — تأثير الحضارة العربية في مدنية الغرب

كتب العالم بايلي إلى فولتير الفيلسوف الفرنسي عبارة لا تزال تروى ويتناقلها المؤرخون فقال :

« إن الامم الاوربية بعد أن ضاعت في أحضان المسيحية ، قد عادت فاستنارت بغزوات العرب والاتصال بالاغارقة » .

أما المتفق عليه بين ثقات المؤرخين فهو أن أثر العرب في تنوير أوروبا ، كان أمكن وأثبت من أثر الاغارقة . ومن الدلائل القاطعة على ذلك أن العرب هم الذين أحيوا في أوربا فلسفة الاغارقة وآدابهم وفنونهم ، وأعادوا الى العالم الحديث ذكر رجال من عظماء اليونان نسيت أسماؤهم وعفّى الزمن على آثارهم .

ولا خلاف مطلقاً بين المؤرخين في أن العرب هم الذين تبنّوا الحضارة الاغريقية فترجموا عنها الى العربية جلّ الآثار الثقافية التي وصلت يدهم إليها في مختلف فروع المعرفة الانسانية . ولم يقفوا عند ذلك بل شرحوها وأضافوا إليها وطوّروا وحسّنوا من عندياتهم عليها ، فأورثوا الحضارة الحديثة أسمى ثمراتها العقلية والفنية ، وكانوا بحق آباءً كراماً ، لورثة عاطلين ، حفزهم ما رأوا في الآثار التي نقلت إليهم، الى البحث عن الاصول التي ترجم عنها العرب ، وما أن عثروا عليها حتى أكبّ عليها دارسون استعانوا بالصبر على تفهم آداب هوميروس وفلسفة أفلاطون وارسطوطاليس وغيرهم من عظماء العالم الاغريقي القديم . ولقد قال المؤرخ « هايد » قولة حق إذ قضى : « بأن أكثر ما خلف الفكر اليوناني من الآثار العقلية التي عثرنا عليها في مخلفاتهم ، قد وصلت إلينا أول شيء عن الامة العربية » .

لقد نقل العرب الى أنحاء أوربا ثمرات العقل الاغريقي ، قبل أن يبدأ الدارسون في أوربا التفقه في درس اللغة اليونانية في أواسط القرن الرابع عشر (١٣٦٠م) وكان ذلك بمدينة فلورنسا أول شيء ، ثم بعد أن تفرق فقهاء اليونانية في أنحاء أوربا الشرقية بعد سقوط القسطنطينية في يد محمد الفاتح (١٤٥٣م) . ولا شك مطلقاً في أن كثيراً من الكتب

الاغريقية ، وبخاصة في العلوم ، قد نقلت أول ما نقلت الى اللاطينية عن المؤلفات والترجمات العربية .

أضف إلى ذلك أن كثيراً من المؤلفات الاغريقية الثمينة ، لم يعرف لها أصل إلاّ مما كتب العرب . ولنضرب لذلك مثلاً . ففي العلوم الرياضية نقل العرب كتاب العالم الهندسي مثلاوس الاسكندري في « المستديرات » ، وترجموه بعنوان « كتاب الاكر » ، ومن ثمت نقل الى اللاطينية ، ولولاهم لما عرف له أصل ، ولا ثبت خبر . كذلك هم نقلوا الى العربية كتباً ثمانية وضعها العالم افولونيوس الفرغاوي في « القطوع المخروطية » ، نقل منها ابراهام الماروني (١٦٦١ م) الكتاب الخامس والسادس من مخطوطة عربية في مكتبة آل مديتشي في فلورنسا . ولولاهم لما استطاع الأطباء إكمال تعليق جالينوس على مقالة ابقراط في الأوبئة ، إذ عثر على الترجمة العربية في الاسكوريال ، ولما استطاع العلماء أن يعرفوا شيئاً عن مقالة ارسطوطاليس في الأحجار ، لولا الترجمة العربية المحفوظة في المكتبة الأهلية بباريس .

إذا تتبّعنا تاريخ المعرفة الانسانية ، وعرفنا أن أثر الثقافة الاغريقية قد امتد في الاسكندرية إلى ما بعد الطور الروماني ، لما استطعنا أن ننكر أن العرب هم الذين ظلوا قوّامين على كنز الثقافة فتعهدوه وحمّوه منذ العصر الاغريقي الى عصر النهضة .

يقول المؤرخ الفرنسي مسيو « ليبرى » : إن العرب اذا استحقوا التمجيد ، فانما يستحقونه لأنهم ظلوا حفظة الثقافة الاغريقية والهندية طوال عصور كفّت خلالها بقية الشعوب عن أن تنتج شيئاً ، وكانت أوربا ما تزال في جهالتها ، عاجزة عن أن تحمل الأمانة الثمينة . على أنك اذا أوْدعت بالعرب من صفحة التاريخ ، إذن لتأخرت النهضة في أوربا بضعة قرون » . — ولا شك في أن مسيو ليبرى كان يصيب أقرب الى الحق اذا قال أن تلك النهضة ربما كانت قد اتجهت اتجاهاً آخر غير اتجاهها المعروف ، بل ربما كانت قد سلكت السبيل القويم .

* * *

وفي مجال العلم خاصة بَزّ العرب سابقيهم الرومان ، فكانوا بحق ورثة العالم الاغريقي . أضف إلى ذلك أن العرب لم يقفوا عند عظماء الاغريق مثل أفلاطون وارسطو وأبقراط وديوسقوريدس وافليدس وبطليموس ، بل إنهم أكبوا على جماع الثقافة الاغريقية فنقلوا عن فصحاء وخطباء وسفسطائيين ، لا يتسع أن يقوم لهم ذكر الى جانب هؤلاء ، وفي ذلك دليل على أن نهمتهم للعلم والمعرفة لم تكن تعرف حدوداً ، ولا تقف عند غرض جلّ أو دَقّ .

٦ — الفلسفة الكلامية

عرفت هذه الفلسفة في أوربّا « بالفلسفة المدرسية » : Scholasticism ، وهي في الواقع صورة محوّرة من فلسفة الكلام عند العرب .

نعرف أن العرب عكفوا على درس فلسفة المشائين ، أرسطو وأصحابه ، أكثر شيء ، ومن عكوفهم على درس هذه الفلسفة قد ولّدوا فلسفة الكلام في اللاهوت الاسلامي . ولقد يرجع تصوير هذه الفلسفة وتحديد قسماتها الى الجدل الخلافي الذي قام بين الواقعيين والإسميين من فلاسفة العرب ، وكان الأولون يجرون على مذهب ابن سينا ، والأخيرون يجرون على مذهب ابن رشد .

ولقد حقّق المؤرخ الفرنسي « هورو » أن الكندي فيلسوف العرب ، كان المرجع الذي اعتمد عليه الاسكندر الهاليسّي وهنري الغنتي والقديس بونا فنتورا ، بينما اعتمد وليم الأوڤرني من تعريفات الفارابي وحدوده ، كما اعتمد منها فلسفت بوثيه والبرت ماغنوس (الكبير) . ومما يدل على أن فلسفة الكلام العربية قد أثّرت في اللاهوت النصراني حقيقة ، أنّ وليم الأوڤرني كان يفضّل العرب على الافارقة . لان الافارقة فلاسفة أكثر منهم لاهوتيين ، والعرب لاهوتيون أكثر منهم فلاسفة . ذلك بالضرورة على قدر ميوله ومقتضى نزعته .

على أننا اذا كنا نعتقد اليوم أن فلسفة الكلام ، سواء أعند العرب أم عند الأوربيين ، قد كانت من المباحث العقيمة ، فإنها قد أخرجت للبشرية بضعة مفكرين أحرار ، منهم المعتزلة عند العرب ، وقد ضاعت آثارهم أو تبددت ، ومنهم يوحنا اسقوطس أرغينا ، وبرتجاريوس وإبيلارد ، ووليم أوكام ، وتبعهم وليم هس وصانوناروﻻ ولوثر وبرونو وكامنبانلا .

بعد أن وضع العرب يدهم المجدّدة على كل ما خلف الأفارقة من تراث المعرفة والحكمة ، فنمّوها وأوسعوا من آفاقها في جميع التواحي ، أصلوا بجميع ذلك إلى أوربا . وكانت إسبانيا أول بقعة أوربية تلقت علمهم . ففي القرن العاشر ، ذلك العصر الذي يمثل أقتم دورات الظلام في أوربا ، تراكمت في إسبانيا ، على ما يقول المؤرخ « كلمر » كل الثمرات الانسانية ، فنمت فيها الدراسات العليا التي رفضها جميع العالم الانساني وأهاج عنها ، حتى في القسطنطينية منذ عصر ليون الايزوري (٧١٧ م) .

وفي الحق أنه منذ القرن العاشر الميلادي أخذ الفكر الأوربي في إسبانيا يتجه نحو صبت آخر . فإذا ذاك ترجم برحنا الأفضيلي الكتاب المقدس الى العربية ، وقام القارو Alvar القرطبي يلوم بني جلدته على أنهم تركوا لغتهم وشريعتهم الى لغة العرب وشريعتهم، فأخذ الفكر الأوربي في إسبانيا ينمو ويكبر ويشب عن الطوق فظهر هنالك أيطون أسقف ثيبس ولوبيت البرهلوني ، ورجل يقال له يوسف كاتب أدلبرو رئيس أساقفة ريمس ، وكلهم تزود في الرياضيات والفلك أخذاً من العرب وآثار العرب .

٧ — العلوم الرياضية

أمّ اسبانيا في عصر ازدهارها بالثقافة العربية ، أولئك الذين تعطشوا للعلم وأمّوه حب المعرفة . كان من أولئك دارس كبير النفس كبير العقل يدعى غربرط (ولد في أوفرني حوالي سنة ٩٣٠ ، وانتخب بابا سنة ٩٩٩ باسم سلفستر الثاني وتوفي سنة ١٠٠٣ م .) ولقد عرف بمغامراته وعلمه وأدبه وما تحمل من المشاق في سبيل العلم وتحصيل المعرفة ، فدرس في مدارس فرنسا وايطاليا والمانيا من غير أن يقنع على مبتغاه من العلم ومن غير أن يجد فيها ما يشبع نهمته الشديدة للمعرفة ، فهبط اسبانيا حيث وجد ضالته من العلوم الطبيعية والرياضية ، فنقل منها الى فرنسا وايطاليا والمانيا قدراً كان موضع اعجاب العلماء والمتعلمين ونشره في الأوساط العلمية فكان منهلها العذب ومواردها الدافق . على أن روح ذلك العصر لم يكن ليترك رجلاً مثل غربرط من غير أن يدمغه بأسطورة أو يحوطه بخرافة ، فقال بعضهم ان هذا الرجل قد حالفَ الشيطان .

* * *

يعزى إلى غربرط إنه أول من أدخل الارقام العربية الى تلك البلاد وانه أضاف الى الجبر والحساب بضعة مبادىء من وضعه . وتقول المؤرخون انه أول من ركب ساعة لقياس الزمن .

على ان بعض المؤرخين يحاولون أن ينتقصوا الأثر العربي في ثقافة غربرط ، فيقول بعضهم إنه لم يذهب الى قرطبة أو اشبيلية ، وهما من مراكز الثقافة العربية الكبرى ، بل اقتصر على زيارة لمقاطعة قطالونيا طوّف فيها بأنحاء ذلك الصقع طويلاً . فمن ذلك كله لم يحل بين المؤرخين ان يثبتوا انه مدين بكل معرفته للعرب ، وان معرفته اللغة التي كانت موسم اعجاب معاصريه ، لا يمكن بل لا يتسنى أن يكون لها مصدر ، على ما يقول الثقة الثبت

« وليم أوف مالمسبوري » غير العرب وانها رمتها منقولة عنهم نقلاً لا تحوير فيه .

ان المثل الذي ضربه غربرط لأهل أوربا كان فذاً فائق الأثر، فراحت جماعة من المتعلمين يؤمون المنهل الذي استسق منه . وكان منهم هرمنوس كونتراكتوس الألماني (المتوفى سنة ١٠٥٤ م)مؤلف كتاب « تأليف البوصلة » ، والانجليزي أدلارد (حوالي ١١٣٠ م) الذي ترجم اقليدس عن العربية ، والايطالي كرمانا بوقارا الذي نشر « نظرية السيارات » ومنهم دانيل مورلي ، واوتو الفريزنجي ، وهرمن الألماني وافلاطون التيفولي . أما جيراردِ الكريموني فقد ترجم في طليطلة نفسها كتاب الخازن وترجم عن ابن سينا والرازي وأبي القاسم والمجسطي لبطليوس ، لا عن الاغريقية، ولكن عن العربية ولقد جمع جيرارد من علوم العرب في طليطلة كل ما وصل الى يده في الرياضيات والطبيعة والفلك ، وحملها الى أهل أوربا . وفيه يقول مؤرخ ان جيرارد عاش في طليطلة وفيها لمع نجمه .

* * *

يقول المؤرخ مونتغومري : كان العرب حلقة المعرفة والى لمساعيهم التجارية ندين بأول أشعة من النور لمعت في سماء القرن الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر . ثم يقول :

في خلال ذلك العصر استمد كل الذين برزوا في الرياضيات من العرب وعلوم العرب ونشئوا في احضانهم .

ومن الثابت ان كل الذين كتبوا من الأوربيين في العلوم المحضة قبل القرن الخامس عشر لم يأتوا بجديد لم يكن يعرفه العرب ، بل انهم نقلوا عن العرب نقلاً ، وقليلاً ما أضافوا إلى ما نقلوا . على ذلك كان ليوناردو داپيزا الايطالي، وفيتيلّيو البولندي، وريتوند لالي الاسباني ، وروجر باكون الانجليزي، ثم أرفو دو ڤيلنيف الفرنسي ، الذي ينسب إليه انه استكشف كحول الخمر وزيت التربنتين وغيرهما من المركبات الكيميائية .

وكان كل ما في أوربا في ذلك العهد من علم الجغرافية قاصراً على ما قال به الادريسي من تقسيم الكرة سبعة أقاليم ، وفي القرن السابع عشر عند ما حقق أبو اسحاق ابراهيم بن يحيى بعض الأخطاء الجغرافية ونشرها ، اضطر ابراهام هنكلمان الى أن يقول : « إن أكثر ما نحن مدينون به من الفضل والنور ، وما يدين به أخلافنا ، إنما يرجع الى العربية » .

على أن الزيج المعروف الذي ينسب الى الفونسو العاشر وكذلك ما ينسب اليه من كلام في الأفلاك والكرات، إنما هو عبارة عن نقل مما خلف العرب في علم الهيئة . لقد استمد هذا الملك الذي لقبه أهل زمانه « بالعاقل » كل معرفته عن العرب ، ولقد تقدمت على يده

العلوم عما استقى عن أولئك الأعراب فكان من حلقات الوصل بين نظام بطليموس الفلكي وكوبرنيكوس . على ان الثابت أن الربع الانفرادي إنما هو استمداد من مختلف الأزياج الفلكية التي خلفها العرب بلا أقل شبهة .

عند ما أراد لويس الرابع عشر أن يقيس الدوجة الأرضية على خط الزوال ليعرف بذلك حجم الأرض ، لم يكن يعرف أن الخليفة المأمون قد قام بنفس ذلك العمل قبل خمسة قرون في بغداد .

* * *

يقول بايلي : ان أول خطوة اتخذت في القرون الوسطى نحو احياء العلوم كانت ترجمة كتاب الفرغاني في « مبادىء الهيئة » أما البتاني « ابن جورا » وقد نعت حيناً بالكبير ثم بالعاقل ثم بالباهر تقديراً لعلمه واعترافاً بما لكتابه « الكرة » من القيمة العلمية فقد ولد في طليطلة سنة ١١١٩م . وكان من الآخذين عن العرب في علم الهيئة ولقد نشر علم أساتذته الذين تلقى عنهم في أنحاء أوربا . وعن البتاني ، أكثر مما كان عن بطليموس ، استمد العالم سا كروبوسكو (المعروف باسم يوحنا الهلوودي) مواد كتابه في « الكرات » . وعنه نقل المعلق يوهان مولر ، الذي علق على كتابات روجيو مونتانوس الفلكي العظيم ، أول ما عرف في العلم الأوربي عن تماسات محيط الدائرة . وعن الخازن أخذ كبلر فكرة الانكسار الجوي . وربما رجع الى العرب الفضل الذي استحقه نيوتن بكشفه عن نظام تجاذب الأجرام ، أكثر من رجوعه الى سقوط التفاحة في بستان . فلا ينبغي للمؤرخ أن ينسى أن فيما كتب محمد ابن موسى[1] هيئاً عن حركة الأجرام السماوية وهيئاً عن قوة الجذب . وفي ذلك ما يكفي .

* * *

٨ — علم الطب

إن تأثير العرب في كل فروع العلوم الطبيعية ومنها العلوم الكيميائية والطبية ، لا يقل ثباتاً في التاريخ الانساني ، منه في العلوم الرياضية . ولقد كان روجر باكون وريموند لال

(١) ترجمت كتب محمد بن موسى ونشرت في مجموعة لاطينية معروفة باسم :
Biblioth. arab. Philosophorum.

من تلاميذهم في علم الكيمياء ، وكانوا يسمونه « الصناعة الكبرى » ، كما كانوا من تلاميذهم في علم العدد والحساب .

ولقد أخذ عنهم ألبرت ماغنوس فلسفة ارسطوطاليس وكان يدعى البرتوس ، وهو البرخت جروتوس أو جروس ، وقد ولد في سوابيا سنة ١١٩٣ ، وهو من الانسيكلوبيديين المعروفين ، ومعلم القديس توماس اكوينوس أو توما الاكويني الذي سماه أهل زمانه ، كما سموا فربرط من قبل « بالساحر » .

وبعد سنة ١٦٠٠ ميلادية استطاع عالم نابه اسمه « فاريقيوس أكوابندنته » أن يقول في مؤلف له : « يرجع كل علمي إلى ثلاثة رجال سلوس من اللاتين ، وبولس الاجانيطي من الافارقة ، وأبو القاسم من العرب » .

في عالم السماء برز البتاني . وفي عالم الأرض برز الادريسي . أما في عالم الطب فقد برز ابن سينا وابن رشد . وظل أثر هؤلاء قائماً في عالم المعرفة ستة قرون حتى انتهاء القرن السادس عشر الميلادي على أن أثر ابن سينا في عالم المعرفة لم ينته بحلول القرن السابع عشر . فانه في القرن التاسع عشر نفسه ، ظهرت تعليقات على مؤلفاته في لوفان ومونبلييه في فرنسا .

ولقد اعترف بأثر العرب في هذا العلم كل كبار المؤرخين مثل بورهاف وهالر ، ويقول بروكر : « حتى حلول عصر النهضة العلمية ، ظل ابن سينا ، لا في دوائر العرب فحسب بل في دوائر أوربا المسيحية ، الحاكم بأمره في عالم العقل » . وفي أوائل القرن الثالث عشر نقل الدكتور البرتغالي بدرو جوان الذي كان رئيس أساقفة « براغا » ثم بابا باسم يوحنا الحادي والعشرين ، عن العرب كتابه المسمى « كنز المساكين » أو « دواء جميع الأمراض » ، ومقالته في « الصحة » ، ومقالته في « تكوين الانسان » ، حيث احتذاهم ولم ينحرف عنهم قيد شعرة .

ومن اسبانيا خرج جميع أطباء أوربا اطلاقاً ، ومنهم انتشر حب العلم الصرف وذاعت فوائده .

يقول هالر : ان الأطباء الاسبانيين في أثناء ذلك العصر الذين كان بنو جلدتهم يستردون من العرب أرض اسبانيا شيئاً بعد شيء ، استطاعوا أن ينقلوا الى أهل ايطاليا حب الآداب والعلوم » . وفي اسبانيا درس الأطباء اليهود الذين عرفوا في أنحاء أوربا بتبريزهم في صناعة شفاء الأمراض ، ومن ثمة نقلوا ثمرات العلم الى جوف أوربا . ولقد اتخذ الملوك والبابوات

أطباءهم من اليهود . ومن الأمثلة على ذلك أن طبيب الفونسو المقاتل ملك أراجون وإسمه بدرو الفونسو ، كان يهوديًّا فاستنصر . وكذلك بولس ريقيوس طبيب الامبراطور مكسمليان الأول ، كان يهوديًّا وظل كذلك ، وقد درس في اسبانيا حيث ترجم كتاب أبو القاسم وهو كتاب قال فيه « هالر » انه «النبع العام» في صناعة الطب

وقد انحدر الينا ان العرب أجروا كثيراً من العمليات الجراحية لم يكن يعرفها القدماء كما أضافوا الى الصيدلة بضعة مركبات كيماوية ذات أثر كبير في تقدم ذلك العلم .

* * *

إذا أغضينا عن ذلك كله ، ثم عندنا دليل آخر على ما كان للعرب في علم الطب من أثر ووثبة أوربا ، في أن جامعة « سالرنو » التي انتشرت براعمها في جميع انحاء أوربا ، إنما يرجع انشاؤها الى العرب .

يقول مؤرخ : عند ما استرد روبرت جسكارد النورماني (سنة ١٠٧٠ م) مدينة سالرنو من القوم الذين يقال لهم العرب الذين احتلوا جنوبي إيطاليا أكثر من قرنين من الزمان ، وجد هنالك مدرسة تعلم الطب أسسها أولئك الكفار . ولقد دلته حكمته على أن يحتفظ بها وأن يؤيدها بالمال والنفوذ وجعل رئاستها لرجل يدعى قسطنطين أفريقانوس (أي الافريقي) ، وكان من بربر قرطاجة أوقعته أسفاره ومخاطراته ، كالادريسي ، في يد النورمانيين بصقلية . وقد ألبسه تلميذه الراهب المشهور دسيدريوس الذي صار فيما بعد البابا فيكتور الثالث . وعند أوبته ترجم الى اللاتينية كل ما وقع اليه من كتب بني جلدته في صناعة التطبيب ، ثم ختم أعماله بتأسيس مدرسة سالرنو الطبية واليه يرجع الفضل في وضع كل المبادىء السالرنية في الطب وعنه أخذت .

وكذلك جامعة مونبلييه الفرنسية . فانها تعود في أصلها الى أهل أراجون (سنة ١٢٠٠ أو حوالي ذلك) الذين أخذوا عن العرب . ففضل ما نقل اليها من العلم يعود الى العرب بطريق غير مباشر . ولقد كان العرب معلمو ذلك الزمان غير منازعين .

اسماعيل مظهر

الوردة

قد حفّها الشوك محتدًّا ومحتدماً ... تخالها أملاً مستشعراً ألما

وما اقتنت شوكها يوماً لتجرحه ... جنداً ، كما زعمته الناس ، أو خدما

ولا لتجعل من أوراقها صحفاً ... تخط فيها ، ومن أهواكها قلما

وإنما هي أرحام قد اتصلت ... ووردة الروض ليست تقطع الرحما

لبّيت ولم يدعُها داع ، وكم رجل ... أرحامه قد دعته فادّعى الصمما

رفيقة ، لو أجاب الله لي طلباً ... منها لقلت استحيلي في فمي كلما

لم أدر هل سال في أوراقها شفقٌ ... أم أودع الله في أوراقها ضرما ؟

أم الندى وغمير النيل ما بلغا ... مدى سداها فاستقاها الربيع دما ؟

أم نوديتْ هي والشوك الملم بها ... أن تمثلا الدهوة الحمراء والندما ؟

أميرةُ الروض ، لكن لا نصانُ ولا ... يحمى لها في إمارات الرياض حمى

يا غصنها فيم تدنيها لقاطفها و ... لا تلك في أن كلاً منكما ظلما

قل لي بربك : هل أدنيتها عبثاً ؟ ... أم خيفةً ، أم وفاءً منك ، أم كرما ؟

لو أنني غصنها ما كنت أسلمها ... إلى « ابن آدم » مهما استزّ واعتزما

بل كنت أنأى بها في الجوّ منتهياً ... هذا الذي قد مشى في الأرض ملتهما

شاعر البرازي

المدرسة المثلى

والتعليم الذاتي

المدرسة المثلى هي المدرسة التي لا يمكث فيها الزائر بضع دقائق حتى يشعر بأن محيطها يختلف جدّ الاختلاف عن باقي المدارس في الغاية والنتيجة : فغايتها أسمى من غايات باقي المدارس ، ونتائجها أرقى ، فهي لا تعمل للامتحان أو الاعتزاز بالظواهر. وفي هذه المدرسة عدد كبير من الطلاّب وعدد كافٍ من المعلمين وبها ملعب وحديقة ، ومسرح ومكتبة .

أول خصائص هذه المدرسة منظر الطلاب وتفاطيعهم ، وعلى وجوههم نضرة النعيم ، بعيدين عن الكسل والخمول . فان مقتل العمر هو ضنّ الحركة والنشاط ، كما تجده حواليك في الطبيعة . إذن فمصدر الخمول هو المعلم الممل : ويقاس الفرق بين طالبين في ذلك ، بنسبة مقدرتهما على تحمل الملل الذي يعرض لهما في المدرسة بسبب عقم طرق التعليم ، فالطالب الذي يتحمل أكثر من غيره يكون نشيطاً ، والطالب الذي لا يتحمل يكون خاملاً .

الخصّية الثانية : هي حركة الطلاب الدائمة خلافاً للسكون المعتاد في المدارس الأخرى التي يُرى فيها الطّلاّب ينهكون قواهم في مزاولة أشياء متعبة ، كالاصغاء المتقطع بالتثاؤب لسماع درس التاريخ أو الجغرافيا أو العلوم أو غيرها من الدروس ، أو يحزون عملاً لا قيمة له كحل مسائل رياضية ميكانيكية أو الرسم من نماذج أو نسخ قطع الإنشاء من الأوح الاسود . أما في هذه المدرسة فكل طالب مشغول بشيء يهتم به ، ويجهد نفسه لفهمه أو حلّه ، وفي هذا حفظ لنشاطه وتجديد لسروره ، — ألم يقل أرسطو إنّ النشاط الحر المطلق عامل ضروري في السعادة والسرور ؟

والخصية الثالثة : أنّ ما يجري في هذه المدرسة جميعه يعبر عن النفس — فالطفل مائل وراء ما يعمله ، وتلمح دائماً شخصيته في مداركها وتعابيرها من مخارج عدة ، وهي متنوعة وكثيرة وميسرة كل التيسير في هذه المدرسة المثلى فنها : —

أولاً — المحادثة : وتكون بالتعبير الحر عن النفس وإبداء الرأي وطرح الأسئلة والمناظرة

ثانياً — الانشاء الحطي بأنواعه ، ويكون باختصار الدروس بلغة الطالب وانتقاء الملاحظات ووصف الطبيعة ، وكتابة قصص قصيرة ، وتحويل الشعر الى النثر ، والنثر الى الشعر

ثالثاً — القراءة الجهرية : وهي التلاوة على الجمهور بصوت عالٍ ، فيقرأ الطالب بفهم وروية على باقي الطلاب كأنه المعلم ، ونرى الطلاب يستمعون له بشوق ولذة .

رابعاً — الالقاء — ويشمل إلقاء القصائد المختارة والقطع النثرية والأمثال السائرة والنوادر والملح والفكاهات .

خامساً — الغناء ويكون بإنشاد القطع الشعرية القديمة والحديثة .

سادساً — الرقص التمثيلي ويكون بتمثيل روايات قصيرة بحركات فنية منسجمة .

سابعاً — الرقص البدوي وهو عبارة عن الدبكة وغيرها .

ثامناً — التمثيل ويكون بتمثيل بعض الروايات الشعرية أو النثرية ، ويكون بتمثيل بعض الدروس كالتاريخ والجغرافيا وحتى الحساب .

تاسعاً — الرسم بقلم الرصاص أو الطباشير الملوّن أو الزيت .

عاشراً — العمل اليدوي .

الحادي عشر — البستنة : وهي درس الحياة النباتية والدواجن وهي درس حياة الحيوان .

الثاني عشر — النجارة ومجالها واسع في صنع الأشياء النافعة الضرورية كالرفوف والمكاتب والخزائن والكراسي والمناضد والمقاعد .

الثالث عشر — الطهي وهو خاص بمدارس البنات .

الرابع عشر — الخياطة والتطريز وعمل الابرة والصوف وهذه أيضاً خاصة بمدارس الإناث .

في هذه الأعمال وما شاكلها يقف الطفل غير هياب ولا وجل ، ويظهر نفسه وينطق مداركه الكامنة ، فيندثر أثر التدليس من أعماله ويخلص في انجازها ، وأما المعنون فعليهم أن يساعدوا الطلاب على تهذيب أنفسهم بأنفسهم فيقدمون لهم أشياء ثلاثة لا رابع لها :— الرغبة والارشاد والمادّة ، وعلى الطلاب البقية من الجد والعمل والاعتماد على النفس — فهذا طريق غير ذي عوج ، وهذا هو الطريق المستقيم فمن سلكه اهتدى وكان النجاح حليفه .

أساس هذه المدرسة التعليم الذاتي أو تعليم النفس بالنفس : وهو أساس متين لا ينهار دعائمه ، وهو ما يعوز مدارسنا في المدن والقرى . وأمثال هذه المدرسة تدل على أن النمو يأتي من الداخل ولا يمكن أن يوضع من الخارج ، وان النفس تنمو داخليًا وبواسطة نموها تتسع قوى المدارك وتتجلى قوة التعبير ، وعلى هذا يكون واجب المعلم أولاً وآخراً : أن يشجع النمو — أي التعبير الذاتي .

لنفصل القول الآن في كيفية أو طريقة تدريس بعض المواضيع في هذه المدرسة المثلى :

يُدرس التاريخ بواسطة التمثيل ، فاذا ما مرَّ الطلاب بحادث مهم يمكن تمثيله يشرعون في ذلك بلا تردد فيراجعون الكتب والحكايات التاريخية والمراجع الاخرى حتى إذا ما ملكوا ناصية الموضوع بدأوا في نسج الرواية وأعداد الثياب وغير ذلك . ثم يمثلون المشهد والمعلمون يشجعونهم ويشوقونهم ويرشدونهم ويساعدونهم واخوانهم الباقون من لم يشتركوا في التمثيل ينظرون إلى المشهد وكتبهم أمامهم ، ومن وقت لآخر يصفقون استحساناً لما يبديه زملاؤهم ، وعلى هذا يفهم جميع الطلاب الدرس بشوق ونشاط زائدين ، وإذا طلب المعلم من فرقة أخرى أن تمثل درساً ما فلا تتأخر ، فالكل مستعد للقيام بما يطلب منه : ففي مثل هذه الحال نجد لدرس التاريخ تأثيراً كبيراً على الطلاب ، كما انه يعود عليهم بالنفع العظيم إذ تمكث الحقائق التاريخية ماثلة أمامهم . وأما في مدارسنا الحاضرة فالحقائق التي ينقلها الطالب بملة لأنه يصرف ساعاته الطوال في سماع المعلم يتلو أخبار الأولين والآخرين ، فتدخل هذه الأخبار من أذن وتخرج من الأخرى : وما أشد تلذذ الطالب بالدرس الذي يمثل أمامه ! وما أروع ما يفهم من روحه ، وما يدرك من حقائقه ! على أن التمثيل يدرّب قوتين كامنتين في الطلاب : وهما التخيل والحنان .

درس العلوم درس بارز في هذه المدرسة ، فاذا ما أعطي الطلاب درساً عن موضوع كورق الشجر ، يأتي كل طالب بأوراق تساعده على دراسته ، وما على المعلم إلاَّ أن يطلب من كل طالب ان يلاحظ الورقة ، ثم يخبر المعلم عن ملاحظاته ، فتجد الطلاب يظهرون قواهم الكامنة من حيث الطبيعة ، ويتدرّج معهم المعلم في الدرس بالسؤال والجواب حتى يصل الطلاب إلى نتيجة مرضية ، فيضطرون طوعاً بمعرفتها وتقوى قوة الملاحظة فيهم . وهنالك

جولات الطلاب والمعلمين في الحقول والحدائق والبساتين يقيد فيها كل طالب ما يلاحظه في دفتر خاص ، ويرسم الرسوم للايضاح ، وفوق كل ذلك يطلب المعلمون من الطلاب أن يتفننوا عن أعمار نصف الأشياء الجميلة التي يدرسونها في درس العلوم ، وهكذا يصبح درس العلوم أميل الى إنماء العاطفة بحياة الغير ودرس الطبيعة أكثر منه إلى حشو الدماغ. وبالجملة إلى الاعجاب بكل ما هو حسن وجميل ، وسأتحدث لكم على ذكر الاعجاب عن درس الرسم وأهميته في هذه المدرسة فأقول : —

إن ابراز النتائج الظاهرة أمرٌ لا يُهتم به في هذه المدرسة ، وقد يوجد ذلك ضرورة في الرسم لأن الفنان ينظر إلى النتائج المرسومة ، ومنها يقرأ أفكار الطفل الروحية الداخلية : وقد فحص أحد الفنانين عمل الطلاب في هذه المدرسة فوجده جيداً جداً ، مع ان المعلمين لا يعرفون الرسم كما يجب ، وقد تعلمه الطلاب من أنفسهم فبرعوا فيه . واليكم تقرير الفنان الذي زار هذه المدرسة : « لقد وصل الرسم في هذه المدرسة إلى أرقى درجة ممكنة لأن النتائج تعبر عن آراء الطلاب أنفسهم ولم تستعمل النماذج للرسم في هذه المدرسة ، فالطلاب يختارون نماذجهم بأنفسهم ويعتمدون على مداركهم ولا يبالون بالخطأ كما يُرى في غيرها من المدارس فكل طالب ينتقد نفسه بنفسه» ، وقد قال لي مدير المدرسة ما يأتي : « أعطيت كل طالب ورقة من شجر ما وقلت لهم : انعموا النظر فيها . ثم تحدثنا عن خصائصها حيناً ، وبعد ذلك طلبت منهم رسمها ، ولما فحصت النتائج وجدت فيها خطأً كثيراً ، فلم أقل للطلاب أخطأتم ولم أذهب الى اللوح الأسود لأبين الخطأ ، بل قلت : هل رسمكم في هذا القسم مثل الورق ؟ فقالوا : لا . فقلت : إذن ما هو الفرق ؟ فوجدنا الفرق ثم قلت : وكيف يمكنكم أن تغيروه ليصبح مثل الورقة نفسها ؟ وهكذا الى أن وصلنا الى النتيجة المطلوبة ، وبذا جعلت الطلاب يلاحظون خطأهم بأنفسهم ولم أبينه لهم . وأشار الفنان بعد فحص رسوم الطلاب الى انه وجدهم يعرفون كيف يستعملون الألوان ، وأنهم تدربوا على ذلك من أنفسهم ، وان المعلمين أخبروه أن بعضهم يذهبون الى ضفة النهر ليشاهدوا المناظر الجميلة فتثير فيهم الشعور بالجمال ، فلا يجدون طريقاً أقرب للتعبير عن ذلك الا برسمها : فهل من برهان أوضح على أن تعليم النفس بالنفس هو الطريق الى النجاح » .

هذا شيء عن التدريب العقلي في هذه المدرسة ، ولكن نفس الطفل لا يمكن أن تنقسم الى أقسام : فتدريب عقل الطفل يؤثر على نموه الخلقي .

ولقد مضى وقت كان يعطي فيه للمدرسة منحة خاصة على حسن النظام فيها ، وكان المفتشون يكتبون التقارير المفصلة عن ذلك ، فهذا أمرٌ غريب عجيب في تفسير غاية التربية والتعليم ، وإذا أردنا أن نكتب تقريراً عن نظام هذه المدرسة فيكون باختصار ، اذ لا نظام للمدرسة ، ولا حاجة اليها به لأن حب الطالب لمعلميه ولمدرسته يرتق هوى النظام والمحبة ولا يترك له مجالاً للتفكير في الخيانات ومخالفة النظام ، وحيثما توجد المحبة والاخلاص ، فلا مجال للخبث والغش ، ولا المراآة والخديعة لأن القوى المضغوط عليها هي التي تنفجر الى أعمال خبيثة حتى إذا لم تسر في طريق الخير والمحبة ، المحبة في هذه المدرسة نور ساطع والسرور انعكاسه : حدث يوماً أن كان معلم في المستشفى ، ومرض معلمان ، وتأخر بقية المعلمين والمدير لسبب ما نصف ساعة ، فأصبحت المدرسة خالية من المعلمين وعند ما وصل المدير الى المدرسة وجد الطلاب جالسين في صفوفهم يؤدون فروضهم حسب جدول الدروس كما لو كان معلمهم الى جانبهم ، وتاب بعض الطلاب الكبار في الصفوف الصغيرة عن معلميهم ، واهتموا بها فكانت المدرسة سائرة بهدوء ونظام : من هذا الحادث تبين أن التعليم الذاتي يحمل معه الآداب والنظام المدرسي ، وإذا كان لا لزوم للقصاص في هذه المدرسة ، فانه لا حاجة للمكافأة أيضاً لأن كل طالب يجد سروره في عمله ، وفخره في مدرسته ، واحترامه في معلميه ، ولا يسعى ليبرز على رفيقه .

إن التعليم عدوُّ الإنانية ، وغايته كما قلنا مساعدة النمو ، فهدفنا إذن أن نساعد الفرد على أن يتعدّى محيط فرديته ويهرب من نفسه الصغيرة : تدخل الأشياء التي تحيط بنا إلى أنفسنا وتصبح ملكاً لنا عن طريق المدارك الشعورية ، وبوساطة المدارك التعبيرية نخرج من أنفسنا إلى الأشياء التي تحيط بنا ، وهذان العاملان هما المظهران البارزان في التعليم الذاتي — فالتعليم الذاتي يوسع النفس ، ثم يسعى في نسيانها ، ويظهر حس الشعور الأخوي ، وأخيراً يوصلنا إلى السعادة الأبدية — الى مقت الأنانية : هذا ما يقوم به التعليم في هذه المدرسة المثل ، وكل طالب فيها سعيد بنفسه ، لا يهتم أن يتفوّق على غيره ، أو يذال جائزة ،

لأنهم لا يحبون أن يجعلوا من غيرهم عطايا لهم : ومن برز منهم في درس أو أمر ساعد إخوانه المقصرين ليرتقي عمل مجموع الصف في كل درس أو شيء .

المتأخرون في دروسهم لا تثبط عزائمهم بتقصيرهم ، والمتقدمون في دروسهم لا يتباطؤون بتقدمهم لأن المقصر الى المتقدم نجد كلاً جاداً في عمله مسروراً به . وحبّذا نفحة من هذه المدرسة تهب على مدارسنا فتنفي الطلاب حب النفس والغرور ، لأن حسن الأدب في المعاملة هو الغاية القصوى من تعلم الفضائل . فاذا أشبع محيط المدرسة بروح الوداد والإيثار ، والأخلاق الجيدة ، والخصال الحميدة بين الطلاب من نفسهم ، ساد اللطف بينهم ، وهو في حدّ ذاته إنكار الذات والاهتمام بالآخرين في جميع أعمالنا الاجتماعية .

يرى الزائر لهذه المدرسة التأهيل والترحيب به من كل فرد فيها كأنه صديق حميم أو رفيق كريم ، فهم يظهرون له كل لطف واعتناء ، وليس في ذلك تكلف لأنهم تدربوا عليه فأصبح مغروساً في طباعهم — أي أصبح طبيعة ثانية ، وإذا جاء هذه المدرسة متفقد تجتمع الطلاب حوله يداعبونه بكل احترام وإعزاز ، ولا يني أو يتأخر الطلاب الكبار عن مصاحبته والسير معه أو تشييعه الى باب المدرسة .

ومن مظاهر هذه المدرسة التي انفردت بها حب الجمال ، فيتجول الطلاب في البراري والحقول ، في الحدائق والبساتين ، مصطحبين دفاتر الرسم ، يرسمون فيها ما يناسب ذوقهم ، وما هو جميل في أعينهم . ومن أخبار هذه المدرسة أن طالباً في يوم من أيام الشتاء كان جالساً في غرفته فأطلّت الشمس عليه من وراء السحب ، فهبّ من فراشه وأخذ قلمه ودفتر رسمه ، ورسم هذا المنظر الجميل ، فكان حسن التعليل في التعبير عن المنظر السماوي عجباً ، وكانت للوحة آية في الابداع .

وأما الرقص البدوي أو الريفي والغناء في هذه المدرسة فحدِّث عنها ولا حرج ، لأنهما الظاهرة الخارجية لما تكنه بواطن الطلاب ، وهو دليلا السرور والفرح ، وابتهاج النفس والمرح : وترى الطلاب في غدوهم ورواحهم في الأرياف والجبال ينظمون الحلقات ويشرعون بالرقص والغناء ، وإذا وجدوا أولاداً صغاراً في طريقهم أخذوهم من أيديهم ودرّبوهم على ذلك وأدخلوا السرور الى قلوبهم .

وإذا مثّل طلاب هذه المدرسة رواية فلا يتدرّبون على تمثيلها كثيراً ، وذلك لأنهم أخرجوها بأنفسهم فتكون نتيجة التمثيل جيدة يعجب بها الحاضرون : وصفوة القول أن هذه المدرسة فريدة في بابها عزيزة على طلاّبها يتعلمون فيها من أنفسهم تحت ارشاد معلميهم ويجيدون ما يتعلمونه لأن الدافع إليه من الداخل .

ما هي المبادىء التي تتعلمها من هذه المدرسة ؟ إن تلك المبادىء كثيرة منها : —

أولاً — إن التعليم الحقيقي هو تعليم النفس بنفسها — أي التعليم الذاتي — وهو يحتاج لإظهار مكنونات النفس بانتظام . فمنذ ٢٥٠٠ عام علّم ارسطو — أكبر معلم رآه العالم — مريديه إن طريق الخلاص يكون في سلوك سبيل هو النفس . يقدر علماء التربية والتعليم أن يضعوا المبادىء الكثيرة ، ولكنهم لا يمكنهم أن يتقدموا خطوة واحدة عنّا في هذه الحقيقة . فالنمو حيث الحياة ، وجوهر النمو هو الاتساع الداخلي ، فجميع ما يوصل الى الكمال أصيل في كل إنسان وما عليه إلاّ أن يتحقق ذلك في نفسه ويسعى اليه .

إن فلسفة التربية والتعليم العملية موجودة فيما تقدم من هذه النظريات ، فما دمنا نتردد في الاعتقاد بصدقها والإيمان بحقائقها ، نكون قد أسأنا الى أنفسنا برعاية النتائج والظواهر الخارجية ، وجهلنا ما هو سر الحياة والنمو . إنه لمن السهل أن نعتقد بمبدإ التعليم الذاتي ونؤمن به ، غير أنه من الصعب أن نتمثل معناه الداخلي والعلمي .

إن الحلقات التي يقدر بها نمو كل شجرة من سنة لأخرى هي ذلك الاتساع الداخلي لتلك الشجرة ، وهو موجود في داخلها . نحن نفكر دائماً بشأن التعليم ، ونحن نضع نظماً له وقوانين ونقيد غيرنا بقواعد كلية وارشادات عامة ، فالذين ان حلقات نمو النفس تأتي من الخارج — إن هذا إلاّ وهمٌ وتضليل ، وغش للنفس ليس بالقليل .

إذا فرضنا ان المبادىء التي تسير عليها هذه المدرسة المثلى صحيحة فكيف يمكننا أن نعمل بها ؟ السر في السكان لا في المكان ، السر في المعلمين لا في المتعلمين . فهل معلمو هذه المدرسة قد نزلوا من السماء ، وقد اطلعت شخصيتهم على المدرسة فجعلتها مدرسة مثلى : وأمثال هؤلاء المعلمين كثير بين المعلمين في جميع المدارس ، إذن كيف نكوّن مثل هذه المدرسة المثلى ؟ هذا سؤال عويص أتدبر ان أجيب عليه بما يأتي : —

١ — إني لا أظن أن معلمي هذه المدرسة قد نزلوا من السماء حقًّا ، أما أن لهم شخصية ممتازة ومغناطيسية ، فذلك مما لا ريب فيه ، إذ إن هذه القوى المغناطيسية كامنة في كل واحد منا ، وأما أن لهؤلاء المعلمين مواهب طبيعية فذلك مما لا مرية فيه أيضاً — فالشخصية البارزة والموهبة الطبيعية قد كوَّنتا هؤلاء المعلمين فأصبحوا مُثلاً عليا للارشاد والتعليم الذاتي . ولقد أسعد الحظ هؤلاء المعلمين فأوجدهم في مكان لائق لاخراج الكوامن ، واتباع الطريق التي اختطوها فأوجدوا مدرسة مثلى — مدرسة نموذجية — سينقل عنها العالم بأسره ، وسيكون لها شأن عظيم في كل اقليم ، وستنتشر مبادؤها في القريب العاجل ، وقد شرعت المدارس الابتدائية في بلاد الانكليز باتباع تعاليمها والسير بموجبها ، وقد سرت العدوى منها إلى أكثر المدارس — وطرق التعليم كالمرض تسري بالعدوى ، فاذا أصبح التعليم الذاتي وجسده متبعاً في جميع مدارسنا تحت القائدة المنشودة ، وحصل المطلوب ، ولكن ما الذي يقف حجر عثرة في تغيير النظام الحالي في التعليم ؟ إنه ليس الامتحانات والنتائج الخارجية فقط ، بل الأصول المتبعة نفسها — إن الاتجاه نحو التغيير المطلوب هو ما تسعى وراءه البلاد المتمدنة بعد هذه الحرب التي لم تبق ولم تذر ، والتي دكت معالم وحصوننا ، ودرست تعاليماً وأصولاً ولكن مهما أتقنَّا أو أكملنا أحوالنا جاءت معقدة عقيمة لأن هنالك نزاعاً قديماً في نفس كل انسان — نزاعاً بين الجمود والحياة . قد نظن أن ايجاد أنظمة وقواعد التربية والتعليم ممكن نظريًّا ولكن الحقيقة غير ذلك ، فيغلب أن يقوم الواحد منا بعمل غيره عن طريق التدخل : وأضرب مثالاً لذلك بأن نجد المفتشين يتدخلون أحياناً في شؤون المديرين ، والمديرين يتدخلون في شؤون المعلمين ، فيرتب المفتشون المناهج ، ويقررون ساعات العمل حتى انهم ينظمون جداول ترتيب الدروس ، وكذلك يعينون العمل والمادة التي يجب أن تدرس في كل فصل . واما المعلمون فيجدون حتى لا يدعون للطلاب مجالاً يعملون فيه شيئاً من أنفسهم ، بل هم رقباء عليهم ، وعلى هذا يصبح المرء مساعداً ومسيراً في جميع أعماله ، فيتحطم الاعتماد على النفس وتقضي على آثار الاستقلال الذاتي كما وجدنا فيما تقدم وهو ان المدارس تسعى وراء الظواهر وأتمام المناهج والامتحانات والعلامات وتحضير الدروس : قلنا ان الأعمال الآلية قد أخذت تخالف الأعمال النفسية ، وقلنا

إن مظاهر التعليم الخارجية التي استولت على المدارس حتى أصبحت الغاية المقصودة التي يجري وراءها المفتش والمدير والمعلم والتلميذ هي اجتياز في الامتحان والحصول على العلامات الجيدة ، بينما نجد النمو الداخلي في الطلاب وهو الغاية المنشودة — مهملاً كل الاهمال ولا يعتد به ، بل يقيد بالحركات والاعمال الآلية أي الميكانيكية . والذي هو أدهى من هذا وأمرّ أن المعلمين الذين تخرّجوا كالآلة المسيرة سيخرجون طلاباً مثلهم مضطرين مسيرين في حياتهم . فالأمل ضئيل والطريق مظلم والخلاص صعب ومستعر إلاّ إذا مشينا مشية الثيك ، وسعينا المسعى الحثيث ، سعي الجاد المشمر ، ونظرنا إلى المستقبل نظرة المتفائل وقلنا : إن غداً لناظره قريب ، ولولا الأمل لبطل العمل .

نأمل أن تتلاشى موجة الفحوص الجارفة في الصفوف الابتدائية وتنجلي عن الطلاب أوضارها لأن ليس أضر على نفوس الطلاب الصغار من تعرضهم للامتحانات وهولها — هذه الآفة التي لا بد منها والتي هي شر في حد ذاتها .

لقد تقرر أخيراً في البلاد المتمدنة اعفاء الطلاب الصغار من الامتحانات ومن شبحها المخيف الذي يلازم الطالب الصغير وما قريب سوف يتقرر اعفاء طلاب المدارس الابتدائية منها الاّ في السنة السابعة وهي الأخيرة من سني دراستهم في المدارس الابتدائية — فهذا يبشر بالنجاح الباهر وبالأمل الزاهر . إننا نرغب أن يفسح المجال للمعلم للعبور النشيط في عمله ليخطو الى الأمام بقدم ثابتة وعزيمة قوية وراء غايته المنشودة . ولن يأتي التقدم في التربية والتعليم بعد اليوم من المراقبة الشديدة ، وما مصدره الاّ المدارس التي يتلألأ فيها نور الحقيقة — نور التعليم الحقيقي أو الذاتي — وإن بعد الفجر صبحاً ، وان بعد العسر يسراً .

اذا أردنا أن تكون مدارسنا مبعث النور الهادي في ظلمات هذه الحياة المطبقة ، وجب علينا أن نترك المعلمين وشأنهم — أن ندعهم يخطون خطواتهم الواسعة ، ويسيرون في طريقهم المعبد الذي سيؤدي الى النجاح ان شاء الله . سنحاول إن رحلاتي لأوربا لا سيما لانكلترا وزياراتي لمدارسها في المدن والقرى وشهودي التدريب والدرس وتخصصي في التربية والتعليم وفي الكشافة والرياضة البدنية والالعاب الانكليزية ، قد جعلتني متهائماً

أنعي على بلادي ما أجده فيها من الأساليب السقيمة والطرق القديمة . كلاّ . فقد صيرتني هذه الرحلات والاختبارات متفائلاً أكثر من ذي قبل . فلقد تعلمت من المدارس الكثيرة التي زرتها أن في كل معلم وطفل قوًى كامنة ، وانه من السهل ابراز هذه القوى فيهما واستخدامها . فالتفاؤل لا التشاؤم هو ما يحدو المرء لرفع مستوى المقدرة أو المعرفة البشرية ، وان موجة واحدة من الفكر والسرور قد ترتفع بنا إلى أوج العلياء ، على أنه يجب ألاّ نقنط إذا تأخر مجيؤها أو إن لم تعم على طول الساحل ، وهذه الموجة وإن تأخرت آتية لا ريب في مجيئها ، وستتدرّج بالتدفق الينا حتى تشمل الساحل وتطم على الداخل ، وانى متفائل جد التفاؤل ، والتفاؤل يفعم قلبي والأمل يزيدني وثوقاً في أن نفوس المعلمين والمطبوعين المخلوقين متدأب وتتعب ، وتسعى وترغب :

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا تُرد الى قليل تقنع

لا شك في أن النفوس المستنيرة ستسير بالطلاب الى حيث النشاط والسرور ، الى حيث السعادة والحبور ، ما دمنا نعلم أن التعليم اليوم هو غيره بالأمس ، وأن ما يتعلمه الطالب من نفسه هو الذي يثبت وينفع ، وهو الذي يفيد ويمتع ، وهو الذي يجلب الخير ويمهد الطريق ويجعل الحياة لذيذة والعيش رغداً والتعليم سهلا .

إذا اقتنع كل معلم بأنه صاحب رسالة أخلص في عمله مهما تضؤلت عمالته ، ومهما ضاءت حالته ، لأنه قبل أن يكون تراساً وأن يكون الشمعة التي تحرق نفسها لتضيء على غيرها ، وأخذ دائماً وأبداً يردد : فأما الزبدُ فيذهبُ جفاء ، وأمّا ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ في الأرض .

مسكين المعلم المخلص فانّ مثله كمثل النبي صاحب الرسالة يلاقي ما لاقى من العذاب ، ولكن يجب أن يصبر ويتحمل كل أذى ، فلقد أجاد المرحوم شوقي طيب الله ثراه حيث قال:

قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا
أعلمت أشرف أو أجل من الذي يبني وينشيء أنفساً وعقولا
يا أرض مد فقد المعلم نفسه بين الشموس وبين شرفك حيلا

فيأيها المعلمون المخلصون ! يأيها المعلمون الحقيقيون ! أصبروا وصابروا ، ولا تقنطوا من رحمة الله ، فالله بكل شيء عليم ، وسيأتي اليوم الذي يقدر فيه عملكم ، وترفع درجتكم الى المقام اللائق بكم ، وليس ذلك اليوم ببعيد ، وليس ذلك بعزيز على الجامعة العربية التي ستعمل على توحيد الثقافة في جميع الأقطار العربية ، والله من وراء القصد ، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه .

بقلم الدكتور شريف الشامي

الحمامة الطائشة

ضربت بقادمة الجناح ضحىً صدر الفضاء وحلّقت صعدا
فكأنها في الجو حين علت نتف الغمام تناثرت بددا
ويخالها من راح يرصدها إذ حوّمت في الأفق سهم ردى
والريح تدفعها وتقذفها قذف السفين تلاطم الزبدا
إن أسرعت أبصرت عاصفة في جنح ليل جاش مطردا
وإذا ونت خطرت كغانيةٍ راحت تجر مطارفاً جُدُدا
نشرت جناحيها كروحةٍ والذيل لم ينفك منعقدا
وترف حيناً بالجناح كما رفّ الشراع مصفقاً غردا
أو كالحواري حين باكرها من ريّق الأصباح صوب ندى

***

درجت تباري الريح خافقة مما أعدّ لها القضاء غدا
والريح كالثكلى اذا ادركت ولداً تراخت تندب الولدا
والسحب في الآفاق حائرة كقراءة درجت بدون هدى
أو كالسقيم اذا تعلّله من يأسه ما استنفد الجلدا
والليل — جياشاً ومضطرباً — بحرٌ طغا أو خافقٌ وجدا

الحرب تؤدي
الى الحرب

كل حرب ناتجة من حرب أو حروب سابقة ومؤدية الى حرب مستقبلة ما دامت المنافسة سنة الضراري وما دامت الأمم تختلف في مقدار قوتها وبأسها ونظامها ، وأوضح ما تكون هذه الحقيقة في الحروب العالمية الكبيرة التي تخلف مشكلات واسعة النطاق ولكنها تصدق أيضاً في الحروب الصغيرة . وإن خفيت وغمضت أحياناً . وقد تكون تأدية الحرب الى الحرب بطريقة غير مقصودة وبعيدة عن أغراضها . أو قد تكون بطريقة متصلة بأسبابها . فاذا نظرنا في تاريخ مصر الحديث وجدنا أن واقعة التل الكبير كانت منذرة بواقعة أم درمان وبأطماع إيطاليا في الصومال والحبشة وحروبها فيها .

وإذا رجعنا الى عهد الخديوي اسماعيل بالمسا وجدنا أن الحرب الداخلية في الولايات المتحدة في أمريكا الشمالية كان لها أثر في مصر فان انقطاع ورود القطن الخام من الولايات الجنوبية إلى مصانع انجلترة بسبب محاصرة أسطول الشمال لها أدّى إلى الإكثار من زراعته في مصر والى ارتفاع ثمنه ارتفاعاً كبيراً أغرى الحكومة والشعب بالانفاق عن سعة . فلما انتهت تلك الحرب هبطت الأثمان وكان كثير من الناس يظنون أن هبوط الثمن هبوطاً كبيراً إنما هو أمر مؤقت وإنه سيعود الى الارتفاع وهذا مثل ما زعم الناس في أعقاب الحرب العالمية الأولى التي أدّت إلى إفلاس كثيرين لاعتمادهم على عودة ارتفاع ثمن القطن بعد هبوطه ولم يصدقوا أنه هبوط دائم . وهذا الانفاق عن سعة كانت له أسباب أخرى منها توقع إزدياد ثروة مصر زيادة كبيرة بسبب فتح قناة السويس لمرور تجارة العالم بين الشرق والغرب بها وربما كان سبب هذه الفكرة ما كان يذيعه المروجون لفتحها ، وأيضاً القياس على ثروة سلاطين المماليك وهو قياس لا يصح ، أولاً لأن تلك الثروة كانت من الضرائب الكبيرة التي كانت تفرض على تجارة المرور وليس للدولة مثلها في قناة السويس .

وثانياً ـ ان الصناعات اليدوية في ذلك العصر كانت تقع على طريق مرور التجارة وتنتفع بها وتنفع الدولة والأمة. ومن أسباب الانفاق عن سعة أيضاً تعجل ثمرات الإصلاح والاعتماد عليها قبل أوان حلولها، وارتفاع ثمن القطن بسبب تلك الحرب الداخلية كان من هذه الأسباب. وهذا الإنفاق عن سعة أدّى إلى تدخل من جانب الدُّول ثم تحالفات متصلة إلى الثورة العرابيَّة. وإذا نظرنا الى حروب محمد علي باشا وجدنا أيضاً أن حرباً منها تؤدي الى حرب. وإذا بحثنا تاريخ الولايات المتحدة وجدناه يسير على هذه القاعدة. فحرب السنوات السبع التي نشبت بين انجلترة وفرنسا وأدّت الى انتقال كندا من فرنسا إلى انجلترة أغرت سكان المستعمرات الانجليزية في الولايات المتحدة الأمان بسبب زوال الخطر عنهم من ناحية مستعمرات فرنسا. واستشعارهم الأمان أدّى الى نقد خطة انجلترة الاستعمارية بحوهم وإلى السخط من أوجه الأثرة فيها ولا سيما احتكارها الصناعة والتجارة. فكان ذلك هو السبب الحقيقي لحرب استقلال الولايات المتحدة. وإن كان السبب الظاهر تغلب الحكومة الانجليزية بضريبة دخلها قليل ولكن النزاع كان على المبدأ. فحرب السنوات السبع مهّدت لحرب استقلال الولايات المتحدة وهذه الحرب الأخيرة مهدت للحرب الداخلية لأنّ هذا الاستقلال أدّى الى اعتماد الولايات الشمالية منها على صناعاتها وتجارتها بدلاً من الاعتماد على الصناعات الإنجليزية وكان لتلك الولايات ميزات صناعية. ولكن الصناعة الناشئة فيها كانت تحتاج الى حماية، فكان همّ تلك الولايات فرض الضرائب على الصناعات الأجنبية لحماية مصنوعاتها من منافستها وأن لا تفرض على المزروعات كي تقل نفقات الصناعة ولم يكن يهمها أمر الرقيق ولم تكن في حاجة إليه لأن الجو يناسب العمال البيض. أما الولايات الجنوبية فكانت على عكس ذلك يهمها رخص المصنوعات الأجنبية وحماية مزروعاتها بالضرائب على المزروعات الآتية من الخارج. وكان يهمها بقاء تجارة الرقيق وزيادة الولايات المعتنقة لمبدأ تجارة الرقيق بين الولايات الجديدة. ولما كانت الولايات الشمالية صارت أكثر ازدحاماً بالسكان البيض فقد كثر عدد نوابها وخشيت الولايات الجنوبية سيطرة الولايات الشمالية فقرّرت حقها في الانفصال عن الوحدة ولو فازت هذه النظرية التي تعطي الولاية حق الانفصال لتجزأت الولايات المتحدة ولم يكن لها أثر في سياسة العالم.

ومن أجل ذلك قاتل أهل الشمال لحماية الاتحاد وصيانة الاتحاد أدّى إلى تعاظم الولايات المتحدة والى اشتراكها في حروب آخرها الحرب العالمية الثانية . وإذا رجعنا القهقرى الى العالم القديم رأينا أن حرب فرنسا وبروسيا سنة ١٨٧٠ وحرب تركيا والروسيا سنة ١٨٧٧ — ١٨٧٨ هيئتا أسباب الحرب العالمية الأولى . ففي الحرب الفرنسية البروسية سنة ١٨٧٠ انتزعت بروسيا الالزاس واللورين من فرنسا وأخذت منها غرامة كبيرة ساعدتها في نمو شأنها . وأدّت الحرب الى تأسيس الامبراطورية الألمانية الحديثة وصارت هذه الامبراطورية تدفع بالدول الى ميدان الاستعمار لاسباب كثيرة منها تصريف الزائد من مصنوعاتها التي زادت زيادة كبيرة لم يكن لها مثيل في ماضي تاريخها ومنها الرغبة في إيجاد مأوى لمن يهاجر من سكانها. ومنها أن تنشغل فرنسا بالاستعمار عن التفكير في استعادة الالزاس واللورين ، ومنها محاولة إيقاع الدول المستعمرة في نزاع كي تكون المانيا حكماً بينها . وكل هذه الأمور هيأت الحالة النفسية والمادّية التي أدّت إلى الحرب العالمية الأولى وإن كانت شعلتها اشتعلت في البلقان بسبب جريمة سيراجيفو عند ما قتل بعض الفتيان من صقالبة الجنوب المؤتمرين في الصرب الغراندوق فردناند ولي عهد النمسا وزوجه . ثم أن نيل صقالبة الجنوب ما رزموا من تركيا بحربي ١٨٧٧ و ١٩١٢ كان منذراً بحرب أخرى بينهم وبين النمسا لتحرير المقاطعات النمسوية والمجرية التي يسكنها الصقالبة . فالحرب العالمية الأولى ناتجة من حروب سابقة حسب القاعدة العامة .

وإذا نظرنا الى الحرب العالمية الأولى والى عواقبها رأينا أنها لم تحل مشكلات العالم بل زادتها وهيأت أسباب الحرب العالمية الثانية لأن الحرب العالمية الأولى زادت مشكلة الشعوب الألمانية وخلقت مشكلات في بحر البلطيق وأواسط أوربا والبلقان وأدت لخلقات متصلة إلى البلشفية والفاشستية والنازية وخلقت بين ما خلقت مشكلة المر البولوني الذي أشعل نار الحرب العالمية الثانية وان كانت أسبابها متعددة ناشئة من كل ما خلقت الحرب الأولى من مشكلات .

وإذا ما رجعنا إلى ما قبل حرب فرنسا وبروسيا سنة ١٨٧٠ رأينا ان هذه القاعدة تصدق أيضاً أي ان كل حرب تؤدي إلى الحرب فإن حرب فرنسا وبروسيا سنة ١٨٧٠ كان ظاهر

صبيها ترشيح أحد أمراء أسرة الهوهنزلرن التي كانت تحكم بروسيا كي يكون ملكاً لاسبانيا فرأت فرنسا في ذلك تهديداً لها واسلامتها من ناحيتين فرفض هذا الأمير العرش الاسباني وكان هذا يكفي لتهدئة فرنسا ولكنها أبت إلاَّ أن تذل بروسيا بأن تتعهد لها هذه إن مثل ذلك لا يحدث في المستقبل فإن مثل هذا التعهد لا قيمة له إلاَّ ارادة اثارة نزاع جديد. وكان بسمارك السياسي البروسي يرى ان المانيا لا يتم اتحادها إلاَّ إذا قهرت فرنسا وأبعدت عن نهر الرين لان فرنسا كانت لها أطماع في الدول الرينية. وقد نشر بسمارك الوثائق الكتمانية التي تثبت ذلك فكان هذا مما أدى إلى امتعاض الدول من فرنسا ووقوفها موقف الحياد عندما هزمها الالمان وضمع فرنسا في الأراضي الرينية ظهرت أيضاً في عهد نابليون وفي عهد الدركتوار وفي الثورة الفرنسية. وقبل ذلك في عهد لويس الرابع عشر الملك البوربوني. وقد فقدت فرنسا كل ما غنمته أيام الثورة الفرنسية وأيام نابليون ولكنها لم تفقد الأراضي الرينية التي استولت عليها أيام البوربون. ومن أجل ذلك قال بسمارك لبعض الساسة الفرنسيين « نحن إنما نحارب لويس الرابع عشر » وهذا دليل قاطع ان حروب لويس الرابع عشر بذرت بذور حرب ١٨٧٠.

ويطول المقال إذا تتبعنا الحروب واحدة بعد واحدة ورأينا كيف تصدق هذه القاعدة فيها. فنرى أن كل حرب تؤدي الى حرب في المستقبل.

ولكن بعض المفكرين يقولون أن الحرب العالمية الثانية تختلف عن الحروب السابقة (أولاً) بسبب كشف سر القنبلة الذرية. و (ثانياً) لوجود هيئة الأمم ومجلس الأمن العام. أما هيئة الأمم فلا أراها تختلف اختلافاً كبيراً عن عصبة الأمم في الجوهر. وأما القنبلة الذرية فإنها قد لا تمنع الحروب لأسباب (أولاً) ان الأبحاث الذرية تقوم بها الآن دول كثيرة وليس من المستطاع الإشراف على كل بقعة في العالم لمنع صناعة القنابل الذرية. (ثانياً) إذا عرفت دول متعددة سر هذه القنبلة فمن الجائز ان تحدث حرب لا تستخدم فيها كما لم يستخدم غاز الخردل في الحرب الثانية في أوربا (ثالثاً) على فرض إنها استخدمت فمن الجائز أن يكون أثرها في قصر مدة الحرب أكثر من أثرها في القتل والتدمير وإن كان عظيماً. ففي الحروب الماضية كان الملايين من الناس يموتون في حرب أو عدة حروب بينها فترات استجمام ولكن أسبابهم

لا تتغير. فكانت مدة الحرب أو الحروب المتصلة الأسباب أطول ولكن الهلاك فيها أو بعدها بسبب المجاعات أو الأوبئة أو بسبب قتل الأسرى أو تعذيبهم أو اهمالهم أو استعبادهم لا يقل كثيراً عن الهلاك في الحروب الحديثة السريعة . والتخريب قديماً وان ضعفت أدواته كان تخريباً شاملاً حتى ان بعض الغزاة كان يقال عنهم ان النبات لا ينبت في أرض دمرتها جنودهم فكانوا يدمرون المدن ويفتلعون النبات والأشجار ويبذرون الملح في الأرض أو يسقونها بماء مالح كي لا تنبت شيئاً. ومن المعروف ان بقاعاً كانت عامرة هي الآن قليلة السكان والعمران بسبب تلك الحروب أو كانت الحروب من بعض أسباب خرابها أو تأخرها. ويبالغ أهل العصور الحديثة في زعمهم إنهم أرق إحساساً من أهل العصور السابقة وإنهم بسبب ذلك مبتعدون عن الحروب وعن القتل والتدمير . فاذا قسنا رقة الشعور بالنزعات الانسانية في كل عصر كانت نزعات خير وأحلام بالسلام وإذا قسناها بآلات القتال فالعصور الحديثة لم تحجم عن استخدام آلات أهد هولاً من آلات القتال القديمة . ثم ان الظاهر ان الأمم قد تساق إلى الحروب سوقاً لأن الناس لا يسيطرون على نزعاتهم تمام السيطرة ولا يحكمونها حكماً تاماً . والحرب الثانية لم تحل مشكلات العالم حتى يظن إنها خاتمة الحروب بل زادتها تضخماً واستعصاء بالرغم من هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن العام. والنزاع بين الشيوعية والرأسمالية يزداد استفحالاً ومشكلة الشعب الالماني من العسير حلها حلاً نهائياً ولا تزال شعوب كثيرة تتطلع إلى التخلص من النفوذ الأوربي وبعضها به نزاع بين طوائفها. وكل هذه المشكلات بذور لحرب مقبلة لا تقل عن بذور الحروب الماضية ولا يستطاع القطع بأن الحرب لن تكون ونحن الآن في فترة الاستجمام ولكنه استجمام كله متاعب إلا أنه قد يبعد عن الأذهان خطر الحرب المقبلة حتى تنسى ذكرى المستر تشمبرلين قبل الحرب الأخيرة عندما عاد بالطائرة من المانيا إلى انجلترة وصار يلوّح للجماهير بورقة اتفاق مبونيخ ويقول لقد كسبنا السلم !! ثم كانت الحرب بعد قليل . والحقيقة هي انه ما دامت الأمم مختلفة في مقدار قوتها ونظامها وما دامت المنافسة أساس العمران فمن الصعب تحقيق السلم الدائم . بل من المحال منطقياً ان يكون إذا لم نغالط أنفسنا في معنى تلك المنافسة ولوازمها .

ع . ش

نظرة شاملة

تشرف على أنظمة الحكم في العالم

يا عائب القدما بسوء نظامهم ... يهنيك عصرك للشرور منظما
تلك الشرور لها التمدن معدن ... والعلم والفن المنقق منتمى
لا تسفك الوحش الضواري دهرها ... ما يسفك الانسان في يوم دما
هذا ابن آدم فطرةٌ وحقيقةٌ ... لا يخدعنك إن أراد تكتما

توطئة

نعم هكذا حقيقة ابن آدم . لم يتقدم منذ ألوف السنين حتى اليوم ذراعاً أو ذراعين في شرف انسانيته وفضائله واخلاقه مع انه تقدم مسافات هائلة واسعة تدهش قوة العقل وقوة التصور في الاختراعات والاكتشافات والعلم والفن والصناعة وتأنق المعيشة وترفها والطب وسرعة المواصلات وتسهيلها . ان تقدم البشر في جميع هذه الامور لا يجعلهم بنظر مفكرهم الخامل أرقى نفساً وأسمى من أجدادهم الاولين سكان الغابات والكهوف وعشراء البهائم والوحوش . بل نرى آفات البشر بين أفرادهم وجماعاتهم لا تزال هي هي . وإذا أردنا شيئاً من التفصيل قلنا : لا ننكر ان هذه الآفات قد خفت وطأتها في بعض حالات المجتمع ولكن بعضها الآخر اشتدت وطأته في حالات أخرى من حالات المجتمع بحيث بقي مستوى المجموع على ما كان عليه في الازمنة القديمة . ومن ثم يصح لنا ان نحكم حكماً جازماً بغير تردد إن أنظمة البشر في دوطم وأممهم قديماً وحديثاً قد أفلست تماماً وخابت كل الخيبة في اكتساب المجتمع البشري رقياً روحياً صحيحاً .

وقد حان لنا ان نلتفت لفتةً عامةً إلى أنواع هذه الانظمة التي اختارها الناس في ما مضى ولا يزالون يعوّلون على كثيرٍ منها في عصرنا الحاضر .

أنواع الأنظمة الحكومية ونتائجها

وموازنة بين نوعيها الأعظمين

إن استقصاء أنواع الأنظمة التي عرفتها حكومات العالم أمر شديد لا يستطيعه قلمنا في الوقت الحاضر وإن استطاعه بعد بذل الجهد فليس من الحكمة أن يتناوله في مقال واحد كمقالنا الحاضر لأنه يدعو الى السآمة وتشويش الذهن وإعناته على غير فائدة تستحق الذكر ولهذا نكتفي في ما يلي بأهم أنواع الأنظمة الحكومية وهي هذه :

النظام الديني — النظام المطلق — النظام الاقطاعي — نظام تقديس القوة والمهارة — النظام النازي — النظام الدستوري — النظام الشيوعي .

أما النظام الديني فهو على سموّ مقامه وقداسة مصدره لا يصلح إلاّ للامة التي تدين بدين واحد وإن وجد بينها جماعات تخالف دينها العام فليس لها حق المساواة بالسواد الأعظم الذي تخالفه ديناً . وبديهي ان شرط هذا النظام غير متوفر للامم في زماننا الحاضر ولا فيما جاوزه من الأزمنة وأبرز الأمثلة على نظامه الديني حكومات بني اسرائيل وحكومة الخلفاء الراشدين في صدر الاسلام . وفي وقتنا حكومة ابن السعود في الحجاز ونجد . وحكومة الامام يحيى في اليمن فان أحوال هاتين المملكتين تساعدها على استعادة الأحكام الدينية الشرعية في شبه الجزيرة العربية .

وأما النظام المطلق فقد كان عليه المعوّل في الأمم القديمة من بابل وأشور ومصر والخزر والفرس والترك والبربر والشعوب الأوربية القديمة . ولم يخرج عن هذا الحكم قديماً إلاّ قدماء اليونان والرومان . وهو لا يزال معمولاً به في كثير من القبائل الافريقية والأقاليم الهندية وفي جزر اليابان . وهذا الحكم رجح بطبيعته سيئاته على حسناته كما تدلنا حوادث التاريخ وشواهد الحوادث الحالية . وانما تسعد البلاد وسكان البلاد في ظل الحكم المطلق حين يكون الحاكم عاقلاً عادلاً خبيراً . وهذه الخلال الثلاثة قلما اجتمعت في ولي الحكم . ومن الملوك المطلق السلطة الذين نعمت بلادهم ورعاياهم في ظلهم معاوية الأموي وعبد الملك الأموي وأبو جعفر منصور العباسي وحفيده هرون الرشيد وابن حفيده عبد الله المأمون

والسلطان محمود الثالث العثماني وصلاح الدين الأيوبي ومحمد علي باشا الكبير، ومن صلالته الخديوي سعيد باشا . والامبراطور شارلمان والامبراطور الألماني فريدريك الثاني والقيصر الروسي اسكندر الثاني وأمير جبل لبنان بشير الشهابي . ويمكننا ان نعدّ من هذه الطبقة مئة رجل من فضلاء أصحاب السلطة المطلقة . ولكن اذا شئنا أن نحصي أرذياء أهل العقد والحل من زملائهم اجتمع لدينا الوف من الملوك والأمراء . فكيف يدق أهل العقل بخيرات وبركات حكم مطلق والعاذ لا يبنى عليه حكم .

وأما النظام الاقطاعي فهو أفظع من النظام المطلق لأنه عند التحقيق هو هو مع زيادة دواعي الجور والقساوة فيه بتقسيم أملاك الدولة الى عدة قطع يقطع ملكها أو أميرها العام كل قسم منها رجلا يجعله أميراً مطلقاً على ذلك القسم يضرب عليه الضرائب والمكوس كيفما شاء، وكل ما يهم الملك من أعماله هو أن يؤدي ذلك الأمير التابع له ما فرض عليه سنوياً من أموال وأرزاق وجنود واستلام الاقطاع يكون بالمزايدة فالذي يعاهد الملك على تقديم أكبر جعالة له هو الذي يفوز برضاه ذلك الاقليم من المملكة ولو كان الرجل المزايد كما هو الغالب شر المتزايدين خلقاً وأقدرهم وأجرأهم في الجور وارهاق الناس على ألف صورة وصورة .

وقد فشى الحكم الاقطاعي بين الدول الأوربية في القرون الوسطى التي انتهت باصطلاح علماء التاريخ في أواسط القرن الخامس عشر للمسيح. وكانت مدته أطول في أجزاء السلطنة العثمانية حيث بقي الى أواسط القرن السادس عشر . ولا يزال الحكم الاقطاعي معمولاً به في بعض البلاد الهمجية .

وأما نظام تقديس القوة والمهارة وتقديمها على الحق والفضل والرحمة فأوضح صورة له في التاريخ طريقة الحكم التي اختارها يونانيو سبارطة قديماً لجمهوريتهم والذي وضع لهم هذا النظام المعوج وسجل مواده وشروطه رجل منهم اسمه ليكورغوس . وقد سرى نظام تقديس القوة والبطش من يونانيي اسبرطة الى غيرهم من الأمم فدشروا شيئاً من روحه بين أحكامهم وعاداتهم ، وفي جملة هؤلاء عرب الجاهلية فإن تحليلهم السلب والنهب والاعتداء بحجة الغزو وافتخارهم في هذا السبيل يحسب ناحية من نواحي ذلك النظام الجاهلي

حتى ظهر الاسلام فأبطله كما أبطل غيره من المفاسد . ولكن عرب الجاهلية في ما عدا هذه الناحية أي ناحية الغزو كانت أحكامهم ومعاملاتهم شورورية نبيلة فيما بينهم لما طبعوا عليه من الصدق والصراحة والجرأة وعزة النفس .

وأما النظام النازي الألماني ويسميه كثيرون النظام الهتلري — وقد انقضى بانقضاء هتلر — فروحه الخبيثة هي روح النظام الأسبرطي بتقديم القوة على الحق مع غرضين خبيثين هائلين لم يكن النظام الأسبرطي يشتمل عليهما . الغرض الأول إذابة حق الفرد بحذافيره ومحو كرامته الشخصية لمجاد مصلحة الدولة ومبادئها ومطامعها، فليس الرعايا كلهم إلا مئات آلات مختلفة التأثير والقوة وهي خرساء صماء خادمة الشعور تتصرف بها الدولة حيث تشاء وحسبما تشاء . والغرض الثاني التسلط رويداً رويداً على ممالك العالم وشعوبه واستعبادهم وتسخيرهم جميعاً تحت النير الألماني بحيث يصبح الجميع كلهم خدماً أذلاء لشعب الألماني والألمان أنفسهم خدماً أذلاء لدولتهم . وهذا المبدأ بالغ منتهى الجور والتوحش حتى أن الفرائص ترتعد لطوله بمجرد تصوره والتأمل هنيهة فيه . والذي وصل إلينا من مدونات التاريخ أن حب التسلط على العالم خامر قلوب دول وملوك قبل هتلر والألمان ولكن على غير تلك النية الخبيثة نية التسخير والتذليل والاستعباد ، بل على شكل أخف وطأة وأقل مقتاً وجوراً على شكل تبادل المنفعة والكرامة بين الغالبين والمغلوبين مع السعي جهد الطاقة في تمازج وتآلف الفريقين في معايشهم وعاداتهم وتقاليدهم بأمل أن تعمهم جميعاً وحدة قومية أو روابط قوية تشبه الوحدة القومية . هكذا كانت الأماني القعسية بعد المساعي الجبارة في نفوس اسكندر المكدوني وقياصرة الرومان وملوك العرب وناطيون الأول .

بقي علينا الالتفات بوقفة أطول الى النظامين الباقيين النظام الدستوري والنظام الشيوعي وهما أشهر تلك الأنظمة وأقربها الى نيل ثقة أهل العقول ولكنهما مع ذلك لا يستحقان هذه الثقة لما فيهما من دواعي الخوف والخلل كما سيرى القارىء قريباً .

هذان النظامان نرى الخصومة الدودة قائمة بين أتباعهما على قدم وساق إلى حد ينذر البشر بحرب عالمية ثالثة لا تبقي ولا تذر . والعياذ بالله من تحقيق هذه المخاوف بعد اتساع الخرق على الراقع .

حزب النظام الدستوري أو الشوري أو الديموقراطي سواء كان بصورة جمهورية أو بصورة حكم ملكي مقيد تمشي في طليعته دول الولايات المتحدة الأميركية . وبريطانيا العظمى وفرنسا .

وخصمه العنيد النظام القيصري أو السوفيتي أو البولشفيكي وواضع لوائه الناطق بلغته دولة روسيا المعروفة اليوم باسم الاتحاد السوفياتي وينعم مبادئها ومساعيها سرًّا وجهراً جماعات قوية في كل قطر من أقطار العالم وبينها شرقنا العربي والصين والهند وكثير من ممالك أوربا وأميركا .

إن النظامين يتخاصمان خصاماً لم تشهد العيون مثله ولا سمعت الآذان بمثله . وقد ينقلب هذا التخاصم بعد سنوات يسيرة إلى تطاحن استئصال وفناء . والذي نراه إن القيمين يبقون مالئين هذا الشرق بعد هذا التطاحن لم يتمتعوا بعيشة دعة وسعادة ورغد سواء كان النصر للدستوريين او للشيوعيين فكل من النظامين حري أن يضمر أملاً واضحًا لبشر وعن أن يكافح الشقاء الذي يهددهم كفاحاً موفقاً مجدداً .

لا ننكر أن النظام الديموقراطي أو الدستوري يرتكز على قواعد نظرية هي في منتهى الجلال والجمال لأن المرادف لها تأييد الحرية والإخاء والمساواة . ولكنه كلما أصاب هذا الهدف الشريف مرة أخطأه مراراً ما دامت الثروة المالية في هذا النظام هي العامل الأعظم على التصرف بأحواله وتعيين مصيره . ومن ثمَّ أصبحت شروط النظرية الثلاثة الحرية والإخاء والمساواة أقرب الى الوهم منها الى حقيقة راهنة تشاهدها العيون وتلمسها الأيدي . فالمال هناك هو الذي يوجه الانتخابات النيابية وغيرها من الانتخابات كما يشاء ، إذ يشتري من أصوات الناخبين ما يشاء . فأين يكون إذن نصيب الصواب والاستحقاق الصحيح ومكارم الأخلاق والفضائل السامية إزاء تلك الثروة الغاشمة من المال . ان نصيب هذه المحاسن لا يكون حينئذٍ إلاَّ صفراً الى الشمال . ومما يزيد الطين بلة والطنبور نغمة في هذا المجال الاجتماعي شوهش شركات الاحتكار لكثير من الأصناف مما هو عند التحقيق سلب مقنَّع لجانب كبير من أموال الناس وثمرات أتعابهم . وكل ذلك منشأه انحصار معظم أموال الأمة بأيدي فئة معينة من الرجال لا يزيد عددهم على واحد في المليون من مجموع الأمة . وكم نرى في البلاد

الديموقراطية بيت غني عظيم يتمتع بأعظم ملاذ الحياة وأطيب مطاعمها وأبهج مباهج الدنيا وهو مع ذلك لا يستغرق إلا عشر دخله المالي، ثم يدخر تسعة أعشاره الباقية في خزائنه الحديدية أو في المصارف الكبيرة. وحوالي ذلك البيت الغني ألف بيت يكاد أصحابها يقتلهم فقرهم جوعاً وعرياً وسوء معيشة. فما الذي يستفيده أصحاب هذه البيوت الساكين من ادعاء المدعين أن نظامهم الديموقراطي الشريف... قائم على ثلاثة أعمدة راسخة متينة البنيان هي الحرية والإخاء والمساواة... ألا يرى أولئك الساكين ان هذه الدعوى زور وبهتان أو نفاق في نفاق. وانما يستخدمها أولياء الأمر مخدراً قوياً لأعصاب خمسة وتسعين في المئة من أبناء الأمة لكي تتحمل أحمالهم الطغيانية الدامية التي يجود بها عليهم الباقون من شركائهم في الوطن وهم خمسة في المئة.

هذا هو الوجه الحقيقي العملي للنظام الديمقراطي في عصرنا الحاضر مما يؤدي بين الفترة والفترة. والفترات كلها قصيرة الأمد الى ثورات دامية واضرابات واعتصابات وقلاقل أخذ بعضها برقاب بعض لها أول وليس لها آخر. فأي منصف يدّعي الكمال أو مجاورة الكمال للنظام الديمقراطي.

وأما النظام الشيوعي فان اتباعه يتعون على خصومهم الديموقراطيين ما تقدمت الاشارة من أنواع الخلل وضروب الجور الاجتماعي مع بطء سير المعاملات الرسمية عندهم تبعاً لشروط نظامهم الديموقراطي المذكور. ولا شك ان الشيوعيين يجسمون مساوىء خصومهم ويبالغون فيها ثم يعلقون على نظامهم الشيوعي فيذكرون في البراهين على فضله عدم وجود اعتصابات واضرابات ومجاعات في بلادهم ثم يذكرون تقارب رعاياهم في الثروة والتمتع بمعيشة حسنة مع سرعة سير المعاملات الرسمية عندهم.

فيرد عليهم الديموقراطيون قائلين. ان المعيشة في المجتمع الشيوعي متقاربة الدرجات كما يدّعي أصحابها، ولكنها على كل حال عيشة ذات مستوى منخفض ليس فيها من أطايب الحياة بمقدار يستحق الذكر طعاماً وشراباً وكسوةً ومأوى. وأهم مما ذكر ينتقدون على الشيوعيين سلب حرية الفرد وكرامته في سبيل طاعته العمياء لدولته ونظام دولته. فهم في هذا المبدأ الجائر يجرون مجرى الحزب النازي الألماني كما انهم ينتكرون منهم أشد الانتكار عدم مبالاتهم بالدين وأوامر الدين ونواهيه. متخذين الكفر والالحاد ديناً لهم.

وتقول نحن ان أفعال الدين خطأ بل عناد بارد لا معنى له لا سيما بعد ما أثبت بالتنويم المغناطيسي واستحضار الارواح وانتقال الأفكار وازدواج الأشباح وصدق كثير من الأحلام وغير ذلك من متعلقات علم الغيب ان النفس البشرية لا تفنى بفناء جسدها وان بعد الموت غير عالم أرواح وان جهلنا كيفيته . وان لهذا العالم صلة بعالمنا الحالي وان جهلنا مقدار هذه الصلة وشروطها ان هذه الامور كلها قد ثبتت الآن علميًّا حتى ان كثيرين من العلماء اعترفوا بها وقد كانوا يجحدونها ولا يزال الى الآن فريق ينكرها وهو فريق غير كبير . وفريق آخر عظيم يتردد بشأنها بين النفي والاثبات . وعلى هذه يقوم أساس الأديان الراقية من يهودية ونصرانية ومحمدية .

ما الذي نستنتجه ؟

ان ما تقدم معنا بيانه لا يكلفنا عناء في استخراج النتيجة المبتغاة عليه . بل دعانا سياق الحديث في صدر هذا البحث إلى ذكر النتيجة المذكورة . ولا بدَّ هنا من العود الى ذكرها وهي أن نظم الحكم في العالم ليس بينها نظام واحد كان كافلاً برفاهية البشر وأمنهم وراحتهم وان تفاوتت تلك النظم في حسنها أو قبحها في السبيل السوي الواجب اتخاذه لأجل تأمين البشر واسعادهم ؟ والذي يلوح لنا أن هناك سبيلين ، فالسبيل الأول منهما شديد البعد والصعوبة وان لم يدخل في حيز المستحيل . والسبيل الثاني أقل بعداً وصعوبة وإن اعترضته عقبات جمة لا يستهان بها .

أما السبيل الأبعد الذي لا يعد مستحيلاً فهو أن تجعل ممالك المعمور كلها عناية مملكة واحدة لها مركز عام تتولاها أقطاب هذه المملكة العالمية وقد يجعل هذا المركز دائماً . وقد يتصوب ضرب مهلة له من السنين فاذا انقضت المهلة اتخذ لهذا المركز مكان آخر ثم مكان ثالث الى ما شاء الله . وأما ممالك المعمور الحاضرة فتكون شبه ولايات تابعة ذلك المركز ولا بدَّ أن تتمتع كل منها باستقلال داخلي اداري واسع النطاق مع تبعيتها للمركز في التدابير العامة وفي كثير من التدابير وفي كل القوانين والاحكام أو في جلها .

هذه الفكرة الجريئة يتباها اليوم بعض دهاة الرجال ولكن العمر بشأنها لا يزال ضعيفاً فاذا امتد واشتد حامت الآمال حواليها .

هذه الفكرة الجريئة مشغولة في قدمها فقد عرج عليها منذ أربعة وعشرين قرناً الفيلسوف اليوناني أفلاطون وبسط تخيلاتها وتفصيلاتها في كتابه المعروف . بجمهورية أفلاطون . ثم هبَّ لنصرتها الفيلسوف المستعرب التركي الأصل أبو نصر الفارابي منذ احد عشر قرناً

وهو الرجل الذي يلقبه العرب بالمعلم الثاني لأنهم يلقبون أرسطو اليوناني أو كما يسمونه إرسطاطاليس المعلم الأول اذ انتبسوا من مؤلفاته اليونانية كثيراً من ألوان العلم . وقد بسط الفارابي آراءه وتصوراته بشأن توحيد دول بني آدم في كتابه « المدينة الفاضلة » ثم تناول هذا الموضوع وطالبه حسب آرائه منذ ثلاثة قرون الكاتب الفرنسوي جاك جاك روسو .

واليوم عاد أناس من كبار المفكرين الى هذه العقلية التي كان أسلافنا معذورين في أن يضربوا صفحاً لأول وهلة بصعوبة ما كان عليه المعمور من صعوبة مواصلات وتبادل معاملات وتضاءل الوقت الطويل ولو بين مصر وسوريا مثلاً في القول بين مصر وسيبريا أو بين سوريا وأستراليا الى ما هنالك ذلك من الأقطار المتباعدة . هذا فضلاً عن اليأس من استخدام وسيلة لتفاهم الناس بألسنتهم وأقلامهم . ومن ثم كانت فكرة توحيد المعمور تحت راية دولة واحدة أمراً مدهشاً أقرب الى الحكايات الخرافية والتصورات المستملحة المراد منها أنس التفكهة أو لذة التملل . وكثيرون من أصحاب المزاج العصبي الحاد كانوا لا يحسبون هذا المشروع إلا أنهزلة ودليل حماقة وسخافة عقل .

وأما اليوم فلا نقول أنه أصبح تحقيقه على قاب قوسين منا، بل نعترف أنه لا يزال على جانب عظيم من الصعوبة . ولكن كثيراً من مصاعبه قد زالت بفضل تقارب المسافات وسهولة المفاوضات بفضل القطر الحديدية والطيارات والبرق والبريد والهاتف . وأما تفاهم البشر مكاتبة ومخاطبة فلسنا ننظر إليه نظرة يأس متحسر كما كان أسلافنا ينظرون . بل أصبح من الجائز لنا أن نتصور أملاً وطيداً بنيل هذه الأمنية العظيمة عن طريق تعميم لغة السبيرانتو السهلة البسيطة التي وضعها واصمعوها لأجل هذه الغاية غاية التفاهم البشري عموماً فاذا تضافرت الهمم والمساعي بين الأمم على جعل درس هذه اللغة اجبارياً في المدارس ولو سنة أو نصف سنة يحشر درسها في أثناء هذه المدة القصيرة بين بقية الدروس فبحكمها دارسوها ولا تمضي عشر سنوات حتى نرى كل زاوية بل كل قرية من هذا المعمور فيها من يحسنون لغة السبيرانتو تكلماً وكتابة بحيث يصبح العارفون بها وقد لا يقلون بالتدريج عن نصف مجموع البشر وسطاء فعالين للتفاهم العمومي . هذا مع احتفاظ كل فرد وكل شعب بلغته الخصوصية في كل الأحوال التي لا يحتاج فيها الى وسيلة تفاهم بينه وبين الغريب عن لغته ذلك عندما لا تقع معاملة أو مفاوضة بينه وبين هذا الغريب أو عندما يقع بينهما ذلك ولكي يكون واحد منهما عارفاً لغة الآخر .

الى هنا انتهينا من تقديمنا وتقديرنا بشأن اتخاذ السبيل الأصعب لانشاء رابطة بشرية

عامة تتكفل بالسلام امام والأمن التام وتقضي على مخاوف الحروب بين الأمم والتي به المصائب والويلات الفادحة لمشارق الارض ومغاربها بجعل هذا الكوكب السيار المسمى أرضاً تحت ادارة وتدبير دولة واحدة فاذا نجم حيناً بعد حين في هذا الاقليم من هذه الدولة أو في ذاك الاقليم ثورة أو فتنة فلا يكون الخطب الا خفيفاً محمولاً ويمكن حينئذٍ اخماد الثورة والفتنة في أقصر وقت على أبسط صورة ».

ولنلتفت الآن الى السبيل الثاني الذي هو أقل صعوبة وبعداً وآمال البشر بتحقيق أعظم هذا السبيل القريب ولو قريباً نسبياً يقوم باختيار المحاسن التي ثبت ظهورها من النظامين الديموقراطي والشيوعي واجتناب عيوبهما التي ثبت أيضاً ظهورها فيجعل من هذه النحلة وهذا المزيج الحكيم لقيام حكم جديد لا يلبث أن تعم بركاته الخافقين وتتخذه طوعاً واختياراً جميع العناصر البشرية . هذا مع السعي الى توحيد ما يمكن توحيده بين أحزاء المعمور في الثقافة والتعليم والنقد والموازين والمكاييل والمقاييس وازالة الحدود والعوائق السفرية ومواقع الترخص والارتزاق هنا أو هناك فتزول ثلاثة أرباع مخاوف الناس المستحوذة اليوم على قلوبهم ومشاعرهم وهو تدبير عالمي يتطلب عقولاً جبارة . وجبارة العقول لم تحرمنا الطبيعة وجودهم ، بل يمكننا العثور على أفراد منهم في كل بقعة من بقاع الارض ولكن الذي يحوز أن يعوزنا ونخشى أن تكون الطبيعة قد حرمتنا فهو وجود جبارة الفضل والفضيلة والاخلاص والنزاهة والاخلاق الكريمة فاذا وجد ولو عشرة رجال ذوي مناصب عالية على هذا الطراز بين دول الأرض وشعوبها استبشرنا بالنجاح والفلاح وانتشاع هذا السكابوس الثقيل عن صدورنا والا فعلى الدنيا وما كنيها السلام .

وتأييداً لكلمتي الختامية هذا أنقل للقارىء أبياتاً من قصيدة لي حديثة تناولت فيها ناحية من مشكلات العالم وحوادثه على أثر انتهاء الحرب المسكونية الاخيرة :

وقامت وفود ومؤتمرات لتحقيق آمالنا الغاليه
بروقٌ رعودٌ غيومٌ ولكن من الغيث خالية خاويه
ألا إنما طي جذع الاراكة لا فرعها الغلة العاتيه
أينفعها رش أوراقها وأسباب علتها باقيه
إذن ما عهود اللسان تني بل عهود الضمير هي الباقيه

اللاذقية — سورية

ادوار مرقص
عضو المجمع العلمي السوري

أسباب القلق الدولي

الاستعمار : الحائل دون سلام العالم

لمعالي عبد الرحمن عزام باشا

إذا استطعنا أن نرجع بذاكرتنا إلى الماضي القريب ونتأمل حالة العالم عند ما كانت الحرب العالمية الثانية — بجميع أهوالها — تنزل الدماء بالشعوب وتنشر الدمار والخراب ، لرأينا أن العالم كان إذ ذاك مقسماً إلى ثلاث طوائف : اثنتان محاربتان وطائفة محايدة . غير أن الطائفة الأخيرة لم تفلت من خداع الفريقين الأولين وحيلهما .

وكانت كل من الدول المحاربة تكيل التهم على رأس الأخرى وتوجه اليها الاتهامات التي يصعب إثباتها ولا تجدي مناقشتها . وأكد كل من الفريقين انه كان مظلوماً وانه ضحية لعدوان الفريق الآخر ، وزعم انه كان يحارب الحرب الشريفة تأييداً للحضارة ونصرة للحق .

ولسنا نُعنى الآن بشرعية هذه المزاعم أو عدم شرعيتها ، بل علينا أن نبحثها على ضوء قيمتها ونرى هل تستند الى أساس صحيح أم لا .

وتتألف الطائفة الثالثة من الأمم التي انتهكت سلامة أراضيها وحقوقها عن عمد ، ومن الأمم التي هددت بمصير مماثل . بيد أن الأمم الأخيرة كانت متيقظة تسلح أنفسها تسليحاً كاملاً ابتغاء تحاشي مثل هذه النكبات .

الأسباب الرئيسية

والواقع اننا اذا ألقينا نظرة عامة على اسباب الاضطراب بين الأمم في أثناء القرنين الأخيرين لرأينا أنها كانت تزداد خطراً وربما بلغت ذروتها في الحرب الأخيرة عندما اشتركت فيها القارات الخمس بأسرها .

وقد يُسأل : ما هي أسباب هذا الشرّ المفزع الدائم السرّ ، وما هي تلك الأهداف المعتلّة التي ظلت بغير تحقيق في خلال العصور والتي لم تحقق بعد ، والتي يحتمل أن يكون من المتعذر تحقيقها ؟

أهي المجتمع بعد التوسع ، والمزاحمة الدنيئة للسيطرة على الشعوب الضعيفة ابتغاء تجريدها من ثروتها ومواردها ؟

أهي حرب الطبقات أي الصراع بين الذين يملكون والذين لا يملكون ؟

أهي المباهاة بالقومية أو ببغض الأجناس أو التخلق بالأنانية المفرطة والطمع والتلهف على احتكار السلطة مع تجاهل حقوق الطبقات الأخرى والأمم الأخرى والأجناس الأخرى ؟

أم هي المروحة الطاغية للمادية واشتهاء الترف مع ما يصحبها من عواقب لا انفصام لها عنها ؟ أم هي تكديس الثروة والاغراق المفرط في اللذات كهدف رئيسي للحياة وبهذا تزيد هقة الخلافات بين الطبقات والأمم فتلجأ الواحدة إلى مخادعة الأخرى مع ما يترتب على هذا من صراع داخلي وصراع خارجي ؟

أم هي انكسار المعنويات تحت ثقل قوات المادية المتدافعة وبهذا تنقوض أسس الخلق ، وتتزعزع المعتقدات وتنصاب التقاليد النبيلة وتخبو النخوة وتتداعى عرى الإخاء وتنتهك العهود والاتفاقات ؟

قد تكون سبباً من تلك ، أو مجموعة من هاته العوامل ، غير أن النتيجة النهائية التي تتمخض عنها هي أن يكتب للخيانة والخداع الهيمنة ، وتحل الخشية وعدم الثقة محل الثقة ، ويصبح التأهب للحرب وإعلانها الفجائي سُنَّة العصر .

التأثيرات المروعة

بيد أننا إذ نرجع ثانية إلى سبب — أو أسباب — هذه الحالة الخطيرة ، مقتصرين — حرصاً على تحقيق الهدف المقصود بهذا السرد الموجز — على أول أسباب الاضطراب الدولي وأهمها ويمكن حصره في كلمة واحدة هي « الاستعمار » ، أي الاستعمار الحديث ، وهو المبدأ الذي يبتر بامتلاك ما يسمونه مستعمرات ودولاً غير مستقلة ، واستغلالها بأوسع ما تحتمل هذه الكلمة من معان على حساب السكان المحرومين ابتغاء زيادة ارتباكهم وإفشاء سخطهم .

والحق أنه لا يمكن أن نجد دليلاً على النتائج المفجعة المروعة للاستعمار أجلى وأوضح من الحقيقة الماثلة وهي أن الحروب أصبحت أمراً عالمياً عقب انتشار مبدأ الاستعمار الجديد والدعوة له في جميع ربوع العالم .

فالاستعمار الحديث كان يتطلع إليه بشوق أفراد وأمم ، وعُدَّ الطريق السامي الذي يفضي الى الثروة والثراء والسلطة . وثارت الشعوب للظفر به وتزاحم بعضها مع البعض الآخر لتحقيقه ، وأشربت نفوسها بالحقد بسببه دون نظر إلى حقيقة ماثلة هي أن بعض دوَّاد الاستعمار سقطوا ضحايا فكوكه ، ولنذكر على سبيل المثال ما حلَّ بالأسبانيين

والبرتغاليين والفرنسيين . والحق أنه تستمد دروس غير قليلة من المصير المروع الذي آل إليه دعاة الاستعمار وأبطاله المحدثون .

وقد قال رئيس الوزارة الإيطالية الأسبق « نيتي » في كتابه « أوربا بلا سلام » وقد نشره عقب الحرب العالمية الثانية إنّ الحروب الإيطالية في ليبيا كان ممناها انفاق أربعة عشر ألف مليون ليرة لشراء حقيبة ملؤها رمل . فإلى أي ارتفاع فاحش بلغ هذا الثمن بعدما أنفقته إيطاليا الفاشية في ليبيا وإثيوبيا وسواها من المناطق . والواقع أن إيطاليا أدمت نفسها في المال وفي الرجال ، وعرّضت كيانها نفسه إلى الانهيار بسعيها لتحقيق مشروعاتها الاستعمارية ، ولم تجن سوى الدمار والخراب .

سراب

وستدرك جميع الأمم ، آجلاً أو عاجلاً ، بعد هذه الحروب الطاحنة التي سدّدت ضربات قاصمة إلى حضارة اليوم المادّية ، إن الاستعمار سراب . فهي تسعى إليه بجنون ، وتتحارب فيما بينها ولكنها عندما تظفر بهدف معين تجد أن الاستعمار ليس سوى بديل سيء للعمل الشريف والجهد المقترن بالإخلاص ، وحياة الثقة والأمل والمحبّة . إنه في الواقع كبكرة تقذف في اتجاه صخرة . قد تصدم الصخرة ، وقد تترك بها أثراً ، بيد أن هناك احتمالات بأن ترتدّ القذيفة وتقتل راميها !

ومن الحقائق المسلّم بها أنّ الاستعمار — بوصفه استغلالاً للضعيف من جانب القوي — كان السبب الرئيسي لمعظم الحروب في السنوات المئتين الأخيرة . ويمكن تقصي آثار الاستعمار في جميع تلك الحروب . ومن شأن البحث الدقيق أن يبيّن أن آثار الاستعمار الشريرة تكمن في مكان ما من التراث الأدبي للدولة المقهورة متخذة شكل صنم من الأصنام الحديثة وهي : الزيت والذهب والقمح والقطن أو أي إنتاج آخر من غلات الأرض الكثيرة .

والواقع أن الاستعمار في شكله الحديث شرٌّ وبيل للظافر وللمقهور ، للمستعمِر وللمستعمَر على السواء . فهو يسوق الدول الظافرة بالتدريج إلى حياة عدم المبالاة والإهمال والتهاون مع ما يصحب ذلك من شرّ مستطير لا مهرب منه وهو الانغماس الذاتي المهلك . ويلي ذلك حروب قاتلة مع مزاحمي الدولة المستعمرة ويصبح بقاؤها بأسره عرضة للتدهور والانحلال

وما فتئنا حتى اليوم نستطيع أن نرصد في الذرية آثار الشرور التي جلبت بأمم الماضي الاستعمارية المتصفة بالسلف

وإن استبقاء المستعمرات والدول غير المستقلة واستخدامها كمجال للإستغلال الاقتصادي والسيطرة السياسية لا يسعه إلاّ أن يخفض مستوى المعيشة في تلك المناطق . وبهذا تحدد مقدرتها كدول مستهلكة ودع عنك آثار الإستغلال العكسية في الهمّة والنشاط وقوى الإنتاج . ومثل هذه الأحوال المقبضة لا يسعها إلاّ أن تفضي إلى النزول بجانب كبير من سكّان الكون إلى مستوى مقبضٍ من المعيشة يجعل من هؤلاء عبئاً على الإنسانية . واذا أضفنا الى هذا المكائد والدسائس والحروب وسواها من الشرور التي ينشئها الطموح الوحشيّ ، رأينا أنّ صداها هو التعجيل بقيادة المدنية إلى وهدة الدمار والبلى .

حقائق جلية جلاء ذاتيًّا

ألم يكن الغلّ والغيرة والسباق للاستيلاء على ممتلكات الشعوب المقهورة سبب الحروب النبوليونية بجميع نكباتها وماسيها التي جلبتها على أمم وأسر فرنسا نفسها، فضلاً عن العالم بأسره ؟ أولا ينطبق عين هذا على الغزوات التركية والروسية والنمسوية ؟ ألم يكن هذا شأن الحرب الروسية اليابانية التي اندلع ضرامها في مستهل القرن الحالي ؟ لاريب في أن الحرب الأخيرة ماكان يمكن أن تقع بسبب الثقة الفسيحة التي تفصل بين الدولتين ، لو لم يُفضِ توسعهما الاستعماري إلى تصادمهما في سبيل استغلال موارد الدول الصغيرة .

وهل يسع فرداً أن ينكر الحقيقة الجلية جلاءً ذاتيًّا وهي ان الغلّ والغيرة المضمرتين في صدور تلك الدول التي لم تظفر بنصيب من الأسلاب ، وان الشرهَ والشهوة النهيمة للتوسع علاوة على الظفر بالمواد الخام وأراضي الأمم المغلوبة على أمرها ، كانت الأسباب الرئيسية لكل من الحربين العالميتين الأولى والثانية ؟

أولم يكن إدراك الدول العظمى لشرور الاستعمار هو الذي دفعها بعد الحرب العظمى الأولى إلى البحث عن مخرج بمشروعات الانتدابات والتجريد من السلاح وحرية اقتناء الطائرات ؟

لا ريب في أن هذا الطابع الحديث من الاستعمار والاستغلال — الذي يختلف عن الطوابع القديمة التي كانت الشعوب المقهورة بمقتضاها تدترك في الحقوق المدنية على قدم المساواة مع قاهريها في دولة واحدة ذات ادارة واحدة للجميع — هو أمنُّ قلاقل العالم واضطراباته .

وسيظل هذا الإثم الحديث ماثلاً دون سلام العالم إلى أن يتكشف لجميع الأمم، قويها وضعيفها على السواء، من اختباراتها وتضحياتها، حلٌّ مُرضٍ للجميع وتعاون طلي في هيئة دولية لادارة شؤون العالم العامة لمصلحة الانسانية جمعاء على قاعدة تساوي حقوق الأفراد والأمم.

التضحية هي العلاج الوحيد

كانت الحروب التقليدية مقتصرةً عادةً على الجيران المتناحين أو على دولتين متحاربتين. ولكن لما أضحى شرّ الاستعمار كونيًّا، جارته الحروب في ذلك. لذلك تحتم وضع مبادىء كونية لتسوية مشكلات العالم ومنازعاته.

والحل الوحيد لانقاذ المدنية من أسقامها الحالية هو التضحية بالاستعمار.

وإن مساعي بعض الدول العظيمة في هذا الاتجاه سواء في أعقاب الحرب العالمية الأولى لما وضع الرئيس ولسن مبادئه، أو في أثناء الحرب العالمية الثانية كما تجلى في ميثاق الاطلنطي أو ميثاق هيئة الأمم المتحدة — لتُعَدُّ دليلاً على الادراك العام للإثم الذي جلبه الاستعمار على العالم ولنتائجه العكسية على الظافرين والمغلوبين على حدٍّ سواء.

وفي ما خلا الأسباب التي تجعل من الاستعمار كارثة على الدول المذعورة — لأنها تُكره على النزول عن مستواها وتحرم من الطمأنة والقدرة على الانتاج — فهو يلزم مئات من ملايين الجنس البشري بأن يفقدوا نصيبهم في تهيئة مدنية عامة.

فكيف يتسنّى للعالم إذن أن يستقر ما دام أولئك المئات من الملايين قد أصبحوا — من حيث طريقة تفكيرهم وعملهم — عبئًا على سائر البشر؟ لا ريب في أن الاستعمار شر شامل وإذا كان مصير الامم بعد هاتين الحربين العظيمتين سيظل خاضعاً لقانون القوة، فستتكرر المأساة مرة تلو مرة حتى تفنى المدنية — حسبما ندركها — في النهاية.

التعاليم الاسلامية الدولية

والتقاليد العربية المستمدّة من تعاليم الاسلام تستنكر الاستعمار. فالقرآن يحرم تحريماً تامًّا استغلال الآخرين باستخدام القوة لاظفر بمغانم أرضية. وبمقتضى هذه التعاليم تعد جميع الحروب المدفوعة بمشروعات استعمارية ابتغاء التوسّع، وبعد الاستئثار بالغلبة واحتكار الاسواق، والزعم بتحضير السائمة أو احتلال مواقع استراتيجية، أموراً غير

شرعية . ولا تسمح تلك التعاليم بدعوى تعالي دولة على دولة أخرى أو تعاظم جنس على جنس آخر ما دام المقصود بذلك إيجاد جنس صالح والتمييز بين بني البشر .

وتؤكد تلك التعاليم تساوي بني الانسانية وتحظر التفضيل والتمييز بينهم الا بالتقوى والطهر والمحبة والمسالمة . وهي تنكر الحرب والنزاع الا في حالة الدفاع عن النفس أو لتحقيق حرية الاعتقاد لجميع الأديان . وهي تحكم على كل دافع آخر للحرب بأنه غير جائز .

* * *

وقد يحاج البعض بأن التاريخ العربي سجل حوادث تناقض هذه المبادىء . وهذا صحيح لأن بعض زعماء العرب وملوكهم لم يوفر مبادىء دينه . غير أن هؤلاء القادة دفعوا ثمن انتهاكهم لهذه المبادىء إما بأشخاصهم أو بشعوبهم في ما بعد .

وجلي من جميع سور القرآن وحديث النبي أن الاسلام يتبرأ من الاستعمار بجميع صوره وأهدافه . والواقع أنه ليس هناك حجة على صدق تلك التعاليم وبعد نظرها أقوى مما تجلى من دمار انشأته مبادىء الاستعمار الحديثة في حياة جيل واحد ، وما تلاه من جعل الاحرام أمراً قانونياً مشروعاً .

وإني لأضرع من كل قلبي وآمل بإيمان وثيق أن يدرك الساسة الذين يقررون مصير الأمم أن الأوان آن لاستخدام تلك التعاليم الاسلامية النبيلة والتقاليد العربية السامية في انشاء علاقات دولية متينة في اتجاهات تختلف عن تلك التي تملبها سياسة القوة وقانون الغابة مع الثلث من أن تلك العلاقات تنهض على روح المسالمة والمودة والاخاء التي يوحي بها الاسلام ، ذلك الدين الذي لا يعرف تفرقة بين لون أو معتنق ولا تمييزاً بين المعارف والجهالة ، والتقدم والتأخر ، وإنما يعترف بشيء واحد وحقيقة واحدة هي أن جميع الناس إخوة منحدرون من أب واحد هو آدم .

وإن من الواجب الديني على جميع المسلمين أن يستنكروا الاستعمار ، وهذه تبعة عظيمة شريفة وعلى كل عربي مؤمن ومتصف بالرجولة أن يعارض الاستعمار

ولن يشرق فجر يوم جديد يكتنفه السلم والأمل على هذه الدنيا المعذبة إلا عند ما يدرك كل واحد منا — ظافراً ومدحوراً على السواء — أن الاستعمار سائل دون استقرار العالم وسلامه .

ترجمها عن الانجليزية ربيع فلسطين

الطعام والهضم

١ — فائدة القناعة في الطعام : لا فائدة من الطعام ما لم يكن جيداً ، ولا فائدة من الطعام الجيد مالم يُهضَم جيداً ، وما دام الجهاز الهضمي يعمل بانتظام فالهضم يتم بدون صعوبة . أما اذا حدث فيه أقل تشويش أو اضطراب فيشعر المصاب بالألم والإزعاج . ولسوء الحظ لا يمكننا أن نتأكد دائماً من سلامة أجهزة الهضم لعدم وجود أعراض ذاتية ، وقد يحدث في كثير من الأحيان أن يصاب المرء بأمراض خطيرة من ناحية المعدة والمعى دون أن تكون هنالك أيضاً أعراض مرئية .

ومما يؤسف له أن الجسم لا يجاوب حالاً على ما ينتابه من الاضطرابات الهضمية بإحساسات مؤلمة . والواقع أنه يكفي أن يعيش الإنسان عيشة صحية معقولة ليبقى جهازه الهضمي سليماً ، وكثيرون من المرضى كانت معيشتهم دائماً منظمة جداً ، وآخرون بالعكس كان من الواجب أيضاً اعتبارهم مرضى بسبب حياتهم المضطربة وغير المنظمة لم يشعروا فعلاً بأي مرض أو انزعاج ، وما ذلك إلاّ لأن كثيرين منهم قد حافظوا على صحتهم بقدر الامكان ولم يعيشوا عيشة صحية إلاّ بسبب ضعف جهازهم الهضمي . وعلى نقيض هؤلاء وأولئك توجد فئة أخرى يستطيع أفرادها أن يتحملوا مدّة طويلة أي نوع من الافراط لقوة مقاومة هذه الأعضاء ، وكنا نعرف أن كثيرين منهم يجهدون معدهم ويحشونها حشواً بالطعام فوق طاقتها ، وقد قال أحد الأطباء المشهورين قديماً : « كل واحد له المعدة التي يستحقها » لكن هذا لسوء الحظ غير صحيح .

والمهم في الأمر أن يكون رائدنا الاعتدال في كل شيء ، وخصوصاً فيما يتعلق بالأعضاء الهضمية ، وهذا واجب مهما بلغت هذه الأعضاء من القوة . لأن القناعة في الطعام ، وتناول الجسم حاجته فقط ، من الأسباب التي تطيل الحياة — بعكس التهم والشراهة فإنهما من

أقوى الأسباب التي تزعزع قوى الجسم وتصرم حبل الحياة قبل الأوان لأنهما يقضيان على أجهزة الهضم بعمل شاق غير مستعدة له. ولا حاجة بنا إلى القول أيضاً أن معظم أمراض القلب والمعدة والكبد والكليتين والشرايين وغيرها لم تنتج إلا بسبب الافراط في التغذية كما أثبتته المشاهدات الكثيرة. فجدير بنا والحالة هذه مراعاة حالة الأعضاء الهضمية ونعرف خصوصاً ما يلائم معدتنا وما لا يلائمها من الأطعمة، فلا نعمل من ناحية على إضعافها، ولا نعمل من ناحية ثانية على اجهادها دفعاً لسوء الهضم والتخمة وما يتسبب عن هذه الحالة من العواقب السيئة.

والقاعدة التي يمكن السير عليها هي في نظرنا كما يلي: يُترك الحدث في دور النمو يأكل ما يشاء وبقدر ما يشاء دون أن يتجاوز طبعاً الحد اللازم. ويكتفي البالغ من الطعام بقدر ما تسمح له شهيته وليس أكثر. أما كبير السن فيفضل أن لا يتناول من الطعام إلا أقل ما تسمح له به شهيته.

هذا من جهة ومن جهة أخرى نرى أشخاصاً لا هم لهم دائماً ولا هاجس سوى العناية بصحتهم، ومع ذلك تراهم دائماً سقيمين مرضى. وآخرون بالعكس فإنهم لا يشعرون بأي ألم أو اضطراب من ناحية المعدة والأمعاء بالرغم من ذلك تجدهم يهتمون بأعضائهم هذه كل الاهتمام ويساعدونها في وظائفها الهضمية تارة بتناول المليّنات أو المسهلات، وطوراً بعمل الحقن الشرجية دون أن تكون هناك فعلاً أية حاجة لذلك، لأن أمعاءهم تتنظف جيداً وتقوم بعملها من تلقاء نفسها على أحسن حال أفضل بكثير من الوسائل المار ذكرها.

ولذلك كان من الضروري عدم التشبث بمثل هذه العناية الفائقة والاهتمام بها الى هذا الحد ولا سيما في دور الطفولة. ولا ينكر أن للعادات تلعب غالباً دوراً هاماً في حياة الانسان وكثيراً ما يصعب التخلص منها، وعلى الخصوص العادات السيئة التي يكتسبها المرء في شبابه. ثم أن الوالدين أنفسهم يلعبون أحياناً دوراً خطيراً بإعطاء الأمثلة لأولادهم. فاذا كانوا لا يقدرون مثلاً أن يأكلوا هذا الصنف من الطعام أو هذا النوع من البقول فليس بغريب أن لا يكون أولادهم مثلهم، والغالب أنهم يحذون حذوهم في عاداتهم ومشاربهم إذ لا يخفى أن من غرائز الأطفال حبهم للتقليد وميلهم للتعود بمختلف العادات. وإنه لا يكفي

أن نقوم بتربية أولادنا وتهذيبهم في المدارس ، بل علينا أيضاً أن نلقنهم القواعد الصحية من قيام وقعود وجلوس وأكل وشرب ورياضة ولعب ولبس وعمل الخ التي تكفل لهم الصحة الجيدة . وإذا كنا نهتم خصوصاً بتغذيتهم تغذية حسنة موافقة لصحتهم ونموهم فكثير من العلل والأمراض التي يسود أصلها إلى عهد الطفولة والحداثة يمكن إذ ذاك اتقائها ولا تظهر في دور الكهولة أو بعده .

لننتقل هنا الى بحث آخر ، مهم جداً ، ولنعنى به :

٢ — أضرار سرعة الأكل والشرب : لا ريب في أنّ العواد الأعظم من الناس في عصرنا هذا يسرعون في الأكل ولا يمضغون الطعام جيداً بحيث أصبحت هذه العادة عندهم طبيعة ثانية . ولعلّ السبب في ذلك كثرة المشاغل ، والحاجة الناشئة من معيشة المدن ، وقلة استعمال الأطعمة الناعمة (كالخبز والخضار والفواكه) التي تستدعي الاوك الجيد ، فيندفع الطعام والحالة هذه الى المعدة كتلاً كتلاً وهذا ما يتعبها في عملها ويحملها على أن تترك أكثر هذا الطعام كما هو فيندفع الى الخارج دون استفادة الجسم منه . وعلى قدر عملية المضغ تتوقف الفائدة التي يحصل عليها الانسان من غذائه .

فضلاً عن ذلك فالآكل لا يشعر بتلك اللذة التي يجب أن ترافق الأكل عادةً ، والثابت اليوم أن اللذة التي ترافق الطعام من أهم الأسباب المهيئة للهضم والمساعدة على زيادة افراز العصارات الهضمية .

وسرعة ازدراد الطعام وعدم تنعيمه بالاوك الكافي على نحو ما ذكرنا لها أضرارها من نواحٍ عديدة وينبغي محاربتها بأنجع الطرق دفعاً لما يترتب عليها من النتائج الوبيلة . وهذه النتائج تظهر عند الشخص إن طجلاً أو آجلاً . وبقدر ما يكون الجهاز الهضمي عند أحدهم ضعيفاً أو قليل المقاومة يكون ظهور الأعراض باكراً . ومن ناحية أخرى فالذي يسرع في أكله وشربه دون أن يمضغ الطعام جيداً تمتلىء معدته سريعاً فلا يحصل لها عندئذٍ متسع كافي من الوقت لتتمدد باعتدال نسبة إلى كمية الطعام أو الشراب التي دخلت فيها . فوصول الأطعمة هكذا إلى المعدة بصورة فجائية له نفس التأثير الذي يحصل من الاصابة بضربة عنيفة على جدارها العضلي فالا تنقلص إذ ذاك ألياقها بالكفاية ولا تأخذ الأوضاع اللازمة وتنخفض

محتوياتها كما في الحالة الطبيعية ، فينشأ من هذه الحالة إحساس مؤلم وشعور بالثقل والامتلاء ، كما لو ان جسماً غريباً قد دخل فيها ، فينتظر المصاب حينئذٍ الى حلّ ملابسه تخفيفاً للضغط الحاصل فيشعر بشيء من الراحة والانفراج ولا سيما اذا تجشأ ما ابتلعه من الهواء مع الاطعمة وليس هذا فحسب ، فالمصاب نفسه يشعر باحساسات مؤلمة ناشئة عن اضطرابات الهضم ، لان المعدة المتمددة بسبب كثرة الاطعمة تحتاج طبعاً إلى وقت أطول للقيام بعملها فتتأخر عملية الهضم مع انخفاض الأغذية وتحولاتها الكيمياوية .

٣ — تأثير اللعاب في وظائف الهضم : نعود هنا الى نقطة هامة أخرى وهي ان الذين لا يلوكون الطعام جيداً لا يختلط هذا باللعاب الذي يحلل بعض أنواع من الأغذية ، فينشأ من هذه الحالة نقص الهضم ومن ثمّ ضرره ، وخصوصاً في المواد النشوية . وقد أشار الى ذلك العالم الفرنسي كلود برنار (١٨١٣ — ١٨٧٨) فأبان الدور الهام للعاب في عمل الهضم. ولا يخفى ان هذا الهضم لا يبتدىء فعلاً بالمعدة كما يتصور بعضهم ، بل يكون ابتداؤهُ بالأحرى في تجويف الفم . فمن حركة المضغ ينفرز اللعاب ، وهذا اللعاب سائل تكوّنه الغدد اللعابية وتفرزه في الفم ، وفيه أيضاً افراز الغدد البسيطة المنتشرة على سطح الغشاء المخاطي للفم كما انه يحتوي على مادة مؤثرة تسمى (البتيالين) أو (اللعابين) ، وهذه المادة تؤثر في المواد السكرية والنشوية الموجودة في الأغذية وتجعلها مبدئيًّا قابلة للهضم . وكلما كان المضغ كثيراً كان الهضم أسرع ، والمضغ يزيد افراز اللعاب فيختلط هذا بالطعام ، وبذا تأخذ المواد السكرية والنشوية في التحول الى غليكوز . ويتم هذا التحول في المعدة ثم في المعى بواسطة العصارات الهضمية .

وعند ما لا يحصل للخميرة اللعابية (مادة اللعابين المذكورة أعلاه) الوقت الكافي لتمزج بالطعام الذي نتناوله ، فيصل هذا الى المعدة فالمعى غير جاهز بالكفاية . فاذا لم تأت العصارات الهضمية الأخرى لاصلاح النقص الحاصل يؤول الأمر الى حدوث اختلال في عمل تلك الاعضاء مع اضطرابات وتسممات فيها ، بل إلى الاصابة أحياناً بالالتهاب المعوي .

فالشرط اللازم للهضم الجيد هو اذاً اجادة المضغ ، وامتزاج الطعام امتزاجاً كافياً باللعاب ويمكن للانسان أن يأكل وجبة كبيرة ولا يتضرر منها اذا أحسن لوكها وتمهل في مضغها ،

قدر ما يتضرر من هذه الوجبة اذا أكلها بسرعة وبلا لوك .

٤ — الافراط في الشرب : الملاحظ ان الانسان يفرط بشرب الماء أكثر من افراطه بالطعام . والواقع ان شرب الماء يفيد بكثرة متى كانت المعدة فارغة ولا سيما في الصباح قبل الفطور ، وبعكس ذلك تكون الحالة اذا أخذ والمعدة مملوءة بالأطعمة . أمّا ما يختص بالمشروبات الروحية فالضرر يكون مضاعفاً والبلية مزدوجة . واذا قابلنا المواد الجامدة بالمواد السائلة التي يتناولها فهذه الأخيرة تشغل حجماً أكبر في المعدة وتكون هذه منقلة مكظوظة ، وقد تتأثر بسبب ذلك الأعضاء الأخرى . والرجل البالغ يستطيع أن يتناول لترين وأكثر من السوائل ، ويدخل في هذه الكمية الماء والقهوة والشاي والقسم السائل من الأطعمة الأخرى . ويمكن القول ان أغلب الرجال يشربون أكثر من حاجتهم الضرورية مبررين عذرهم بشعورهم الشديد للظمأ . واذا كان الشخص ذا صحة جيدة فالافراط في شرب الماء يُعتبر عادةً سيئة .

وفي كثير من الاحيان يُلقى على الطبيب السؤال التالي وهو : هل ان شرب الماء مفيد أم مضر في أثناء الاكل ؟

فتنويراً للاذهان رأينا أن نذكر هنا ما تمّ معرفته عنهُ .

١ — اذا كان الشخص ذا صحة جيدة ومعدة سليمة : فشرب الماء باعتدال على المائدة (قدر قدح واحد من الماء) لا ضرر منه البتة بشرط ألاّ يؤخذ والطعام في الفم لدفعه الى المعدة لأن اللعاب لا يسيل اذا كان في الفم ماء . واذا أخذ السائل بارداً فور تناول طعام ساخن جدًّا فالأسنان ولا ريب تتأثر وتتألم ولا سيما « المينا » وهي الطبقة الظاهرية الصفيقة جدًّا التي تغطي تاج السن وقد تتشقق وتتصدع هذه الطبقة بسبب ذلك وتغدو الأسنان عرضة للتلف . واذا تجرّع الانسان مقادير كبيرة من الماء فغالباً ما يصاب باضطرابات هضمية مزعجة بل مؤلمة بعد مدة من الزمن .

٢ — اذا كان الشخص مصاباً بضعف أو مرض في المعدة : إن تجرُّع الماء بكثرة في مثل هذه الحالة يسبب حتماً اضطرابات هضمية مع تمدد في المعدة نتيجة توسع زائد فوتخاء في الألياف العضلية لهذا العضو . وقد تصاب هذه الألياف بالتهاب فيزداد الضعف بالتقل

والامتلاء اوديماً عظيماً ويكون الالم شديداً جداً.

وجملة القول أن على من كان مصاباً بمرض أو اضطراب في المعدة أن لا يشرب الماء في أثناء الاكل بل بالاحرى بعد تناوله ويكون ذلك بجرعات صغيرة بحيث يكون امتلاء المعدة بتسهل وبطء، ومثله تمدد هذا العضو، وبذلك يحصل لطبقة العضلية في المعدة متسع كاف من الوقت لتعتاد على حالتها الجديدة. ويجب أن نقول هنا أيضاً أن الشعور بشرب الماء بعد الطعام أقل بكثير من الشعور بشربه بعده أو في أثنائه: وهي نقطة مهمة جداً ولا سيما في أمراض المعدة.

وقد يجد الكثيرون منهم — أولئك الذين اتخذوا عادة شرب الماء بكثرة في أثناء تناول الطعام — صعوبة كلية في ترك هذه العادة، غير انه يمكن التغلب عليها بشيء من العزم وقوة الارادة. وعند ما تبطل هذه العادة يجد الانسان نفسه فيما بعد مسروراً ومرتاحاً جداً ويكون قد خطا خطوات واسعة في سبيل تحسين حالة جهازه الهضمي وازالة الاضرار التي تكون قد حدثت له.

٥ — تأثير الكحول في الهضم: يمنع الاحداث والشبان عن تعاطي المشروبات الروحية على أنواعها، ويمكن السماح بها للاشخاص البالغين بمقادير معتدلة. ويجب أن نعرف أن الانسان الصحيح البنية ليس بحاجة قطعاً الى شرب المشروبات لانها غالباً ما تكون مضرة حتى ولو أخذت بكمية معتدلة.

أما ادعاء البعض من أن المشروبات الكحولية تزيد قابلية الاكل وتقوي المعدة وتسهل الهضم، فتكذبه التجارب والمشاهدات الكثيرة. فان المشروبات المذكورة لا تجلب القابلية البتة ولا تساعد على الهضم بل تؤخره، ويتضاعف ضررها خصوصاً حينما تكون المعدة فارغة حيث يسري السم في الجسم بسرعة.

وقد تقضي الضرورة في بعض الحالات بمنع المشروبات الروحية منعاً باتاً، وفي حالات أخرى السماح مثلاً بالجعة دون الخمر أو بالعكس.

وهناك حالة وهي زيادة افراز العصارة المعدية Hyperchlorydrie يكون فيها استعمال الخمر مضراً، أما إذا كان حامض العصارة المعدية غير كاف Hypochlorie فالامر بالعكس

إذ يستحسن أخذ مقداراً قليلاً من الخمر لمساعدة الهضم . وانه لا يمكن أن نحدد هنا جميع الحالات الخاصة التي يسمح بها استعمال المواد الكحولية أو عدم استعمالها ، فالطبيب وحده يقرر ما يكون ضروريًّا استعماله أو غير ضروري وفقاً للظروف والأحوال الشخصية .

٦ — تأثير الشاي والقهوة في الهضم : الآراء في هذا الصدد متناقضة . فالبعض يفتكر أن الافراط في شرب الشاي والقهوة مضرٌّ جدًّا بالمعدة ويكون سبباً لكثير من أمراض الجهاز الهضمي ، والبعض الآخر يرتاي بالعكس . والواقع أن الانسان العاقل الذي يريد أن يعيش بحكمة واعتدال يكتفي فقط بتناول فنجان شاي أو قهوة كل بضع ساعات ، وهذا لا يضر شاربه بل يساعده على السير في عمله اليومي بغير تلكؤ ، كما انه يقوي المعد الضعيفة وينعش الجسم والعقل ويحثهما على القيام بوظائفهما من جديد كلما انهكهما التعب أو استحوذ عليهما الخمول . أما الذين يشربون ٦ الى ٨ أو ١٠ فناجين من الشاي أو القهوة يوميًّا كما يفعل الكثيرون منهم ، فليس بغريب أن يصاب هؤلاء الأشخاص بأضرار بالغة . فثلاثة أرباع حالات الأرق مثلاً ترجع الى ادمان الشاي ، كما ان مادة الكافيين تسبب ارتفاعاً في ضغط الدم وامراضاً في ضربات القلب . وكلما رخص ثمن الشاي كلما كان أكثر ضرراً .

وما تقدم ذكره عن الشاي يقال أيضاً عن القهوة وهذه يجب منعها خصوصاً عن الأشخاص المصابين بأمراض المعدة وعن العصبيين ، وهؤلاء كثيرون وراهم يوميًّا ويشكون لنا أرقهم وخفقان قلبهم وتهيج أعصابهم . والانسان لا يكون عصبيًّا بدون سبب ، والغالب ان هذا السبب يعود الى طراز المعيشة ، والحياة غير الصحيحة التي تسبب له تسممات حقيقية من بعض الأطعمة التي يتناولها ومن الادمان في شرب الشاي والقهوة

٧ — تأثير التبغ في الهضم : مما لاشك فيه أنَّ التدخين مضر بالصحة مؤذٍ بالجسم ، وله أيضاً تأثير سيء على عقل الانسان ونفسيته ، وعلى جهازه العصبي والتنفسي والهضمي والبصري ، وكذلك على البصر والسمع وغيرها مما يضيق المقام هنا عن شرحه وتفصيله . ويحتوي التبغ على طائفة من المواد السامة جدًّا وهي : النيكوتين ، وأملاح البريدين ، والنيكوتيانين ، وغاز أوكسيد الكاربون والكوليدين . غير أن العنصر الفعَّال في الدخان والأكثر فتكاً بالجسم هو النيكوتين .

وإننا لا نحاول في هذه العجالة معرفة ما إذا كان واجباً أن ينقطع الإنسان تماماً عن التدخين بل علينا أن ننظر فقط في ما له علاقة بموضوع بحثنا أي أمراض الجهاز الهضمي . ولا بدَّ من الإشارة هنا إلى أنه توجد اختلافات كثيرة بين شخص وآخر ، فهذا الشخص

مثلاً يتحمل منذ زمن طويل جداً تدخين بضع سيكار من التبغ القوي أو ٤٠ و ٥٠ سيكارة بل قل ٨٠ سيجارة يومياً بدون ضرر على صحته ، وذلك يشعر باضطرابات مختلفة بمجرد تدخين بضع سيكارات يومياً . فالعبرة إذاً كما ترى ليست بمقدار التبغ الذي يدخنه الانسان بل باعتياده على التدخين ، وبمقاومته البدنية . فماذوي الأعصاب العقلية الكثيرة فلا يتحملون التبغ عادةً مثلما هم لا يتحملون الكحول أيضاً . وهؤلاء الأشخاص يجب عليهم أن يكونوا أكثر حذراً واحتراساً بسبب سرعة تأثرهم وقوة حساسيتهم .

ولننظر الآن في الاضطرابات التي تنتاب من التدخين عند الذين يبدأون في ممارسة هذه العادة . وأهم الاضطرابات المذكورة كما يلي : شدة ضربات القلب . عدم انتظام النبض . دوخان . اصفرار الوجه . ألم في الرأس . تهوع أو قيء . أما الذين قد اعتادوا التدخين بإفراط فالاعراض تكون هكذا : (١) اضطرابات من ناحية القلب : ضعف القلب وسرعة دقاته مع عدم انتظام هذه الدقات ، والذبحة الصدرية أحياناً ، وضيق التنفس (٢) اضطرابات من ناحية الدماغ : ضعف في قوة الذاكرة خصوصاً فيما يتعلق بأسماء الأشخاص ، وأحياناً فقدان قوة النطق وتنبيًا (٣) اضطرابات من ناحية البصر ضعف شديد في البصر يمكن أن ينتهي أحياناً بفقدانه . (٤) تصلب الشرايين : يرجح بعض الأطباء أن لانتشار التبغ دخلاً كبيراً في ازدياد الوفيات الناشئة عن أمراض الشرايين .

والاضطرابات التي تهمنا هنا هو تأثير النيكوتين على جهاز الهضم . فتأثيره في المعدة مثلاً يزيد أولاً العصارة المعدية مع زيادة حموضة هذه العصارة . وهذه الحالة تكون مصحوبة بعوارض مؤلمة واذا أفرط الانسان في التدخين قلت بالعكس العصارة المعدية وقد تنقطع تماماً ، ويتسبب عن هذا كله فقدان شهوة الأكل والامساك . أما من ناحية الأمعاء فالدخان ينبه حركة عضلات هذه الأمعاء ، ولعابها الغليظ منها ، فتتقوى على طرد الفضلات المتجمعة فيها وبذلك يسهل وينتظم تفريغها .

وبوجه عام نقول ان شرب الدخان باعتدال جداً في الأمراض المعدية المعوية لا ضرر منه . غير انه يستحسن الاقلاع بتاتاً عن هذه العادة بالنظر لمضارها الوخيمة العاقبة التي أتينا على ذكرها .

ويوجد أحياناً في الأسواق سيكار يقال انه بدون «نيكوتين» لكن لا يوجد ما يؤكد لنا أن هذا النوع من السيكار غير سام فالافراط في شربه قد يكون مضاهياً بنتائجه الى أنواع التبغ الاعتيادية ولذا يُحترس من استعماله .

بيروت الدكتور عبده حاقه

المخترع العالمي

توماس اديسون

أمريكا تحتفل بذكراه المئوية

عندما يحتفل شعب الولايات المتحدة بالذكرى المئوية لميلاد توماس الفا اديسون، طليعة المخترعين في أمريكا، في ١١ من فبراير عام ١٩٤٧ فسيشيدون بذكرى رجل لعله أكثر الناس توفيقاً في العالم إذ جعل خلق العصر الميكانيكي الحديث حقيقة واقعة.

وقد قدر رجال الاحصاء ان مخترعات اديسون أسفرت عن تقدم في صناعات يزيد رأس مالها الآن على ٢٠ ألف مليون دولار وتستغرق من العمال أكثر من ٤٠ مليون شخص. على أنه لو زيد نطاق هذه التقديرات حتى لا تشمل الصناعات التي لم تسفر عنها مباشرة مخترعات اديسون حسب، بل تشمل الصناعات التي كانت تكون مستحيلة لو لم يساهم في مجالات المعرفة والتقدم، لبلغ الرقم نسبة عالية جداً.

* * *

وابتكر اديسون نحو ١٠٠ر١ اختراع، وذلك عدد من المخترعات لم يكد يسجله من قبل شخص أو هيئة اختراعات في الولايات المتحدة. واذا كان خير ما يذكر به أنه اخترع أول مصباح كهربائي وضاج، وانه كشف وسائل توليد وتوزيع الكهرباء، فانه لم يعرف مجالاً من مجالات المحاولة غريباً على مواهبه.

واخترع أول « فونوغراف »، استطاع أن يحيله آخر الامر الى آلة ميكانيكية تسجل الاصطوانات. واختراعه للكاميرا المتحركة غدا أساساً متفقاً عليه للحصول على الصور المتحركة وأدت الى صناعة السينما.

ووضع جهازاً يسمح بإرسال الاشارات التلغرافية بين محطات سكة الحديد. كما اخترع الجهاز الناقل الذي ساعد الكسندر جراهام بل على جعل التليفون الذي ابتكره تطبيقياً من الناحية التجارية. وأدخل التحسينات التي أحدثت ثورة في عالم البطاريات، وفي صناعة الاسمنت، والتعدين، وصهر الحديد الخام. واخترع وأنشأ أول قاطرة كهربائية في أمريكا، وأحدث اكتشافات أساسية في مجال الالكترونات.

وهكذا ظلّ اديسون حتى وفاته في ١٨ من اكتوبر يعمل بلا انقطاع في معمله ليحسن من طبيعة منتجاته وليزيد من الاقتصاد في نفقات صناعتها .

وقد ولد اديسون بميلان في اوهيو يوم ١١ فبراير عام ١٨٤٧ ، وأبوه ينحدر من أصل هولندي ، وأمه من أصل سكوتلندي .

وبالرغم من أن مدة ثقافته الرسمية لم تتجاوز ثلاثة أشهر قضاها في إحدى مدارس پورت هورن بولاية متشيجان فقد أبدى شغفاً عديداً بالمعرفة وحبًّا في العمل على نحو غير مألوف عند الأحداث . ولما بلغ الثانية عشرة من عمره جعل يبيع الصحف في القطارات المتنقلة بين پورت هورثون وديروويت في متشيجان ثم اتخذ لنفسه معملاً في حجرة العفش يقوم فيه بدراسته الكيميائية .

اشتغل وهو في الخامسة عشرة عاملاً في التلغراف ، غير أنه ظلّ يواصل دراسة الكيمياء وأخذ يعمل لابتكار مخترعات في أوقات فراغه . وكان أول ما ابتكره في هذا الصدد أجهزة توفر عليه عمله الخاص .

* * *

وفي عام ١٨٦٨ ظفر بأول امتياز لاختراع مسجل الصوت الكهربائي لاستخدامه في الهيئات التشريعية . ثم أعد أجهزة أخرى بعد ان أدخل تحسينات عليها ، وفي العام التالي شرع في مد خطوط تلغرافية في مدينة نيويورك .

وافتتح في اكتوبر عام ١٨٦٩ معمله الخاص في نيويورك بنيوجرسي ومعه كثير من الفنيين الذين ذاع صيتهم بعد ذلك . وتسنى له أن يبتكر خلال السنين الثانية القلم الكهربائي الذي تطوّر أخيراً الى النوع المعروف بالاستنسل . وأدخل تحسينات على الآلة الكاتبة . وتحسينات أخرى في مجال التلغراف ، مثل وضع أجهزة لنقل الرسائل المتعددة في وقت واحد وعلى نفس الشبكة السلكية

ثم لاحظ أديسون أن تلغرافه الاوتوماتيكي يحدث صوتاً موسيقيًّا اثناء تقارب أسنات النقط والشرط ، الأمر الذي حفزه على أن يبحث في امكان اختراع جهاز الفونوغراف في ١٢ من أغسطس عام ١٨٧٧ . وهذا الجهاز الذي تكلف ١٨ دولاراً لم يكن في الأصل إلاّ عبارة عن اسطوانة (سيلندر) تدار بواسطة ذراع . وبعد مراحل تطوّر فيها هذا الاختراع انتهى الأمر باديسون الى تسجيل اسطوانة للموسيقى ، ومن ثمّ أصبح الفونوغراف من

أكثر المخترعات التي اشتهر بها اديسون . حتى أن إحدى الشركات في الولايات المتحدة بلغ عدد ما سجلته ، كما أعلنت ذلك، مليون اسطوانة .

* * *

المصباح الكهربائي

على أن خير ما يذكر به اديسون اختراعه لأول نوع عملي من المصباح المتوهج الكهربائي إذ لم يكد يبلغ عمره الواحدة بعد الثلاثين حتى كان إديسون قد توطد مركزه باعتباره مخترعاً، وفي ٢١ من اكتوبر عام ١٨٧٩، بعد أن أجرى مئات التجارب على المعادن والمواد وأنفق أكثر من ٤٠ ألف دولار نجح في صنع مصباح تتألق في فراغه حلقة كربونية من الخيوط القطنية تحرق ٤٠ ساعة .

وبالرغم من أهمية هذا المصباح فلم يكن إلا جزءاً صغيراً من سلسلة أعمال إديسون الكهربائية الأخرى . فقد اخترع جهازاً يولد ويوزع الجرارة من دينامو هائل ، أخذ يزيد من كفايته حتى بلغت نسبة هذه الكفاية ٩٠ في المائة بعد أن كانت أربعين . وأهم من هذا ، اختراعه لجهاز توزيع التيار الكهربائي .

وبعدئذٍ شرع اديسون يفكر في أن « يصنع لعين ما يصنعه الفونوغراف للأذن ، ومن ثم اخترع الكاميرا ذات الصور المتحركة . وظهرت أول صورة متحركة في العالم بمعمله في نيوجرسي .

وإزاء هذا كله ظفر اديسون من الكونجرس الأمريكي في عام ١٨٨٢ بميدالية « التطور والتطبيق في ميدان المخترعات التي أحدثت ثورة في الحضارة خلال القرن الماضي » .

وفي عام ١٨٨٩ قلد وسام الشرف الفرنسي « الليجيون دونير » . وفي سنة ١٨٩٢ منحته جمعية الفنون في بريطانيا العظمى ميدالية البرت . وفي عام ١٩٠٨ منحته جمعيات المهندسين الأمريكية ميدالية جون فريمر للمهندسين . وفي عام ١٩١٤ منح ميدالية رانيو (الألمانية) وانتخب في سنة ١٩٢٧ عضواً في الأكاديمية الوطنية الأمريكية للعلوم .

ونال درجات جامعية فخرية من الكلية الاتحادية ، وجامعة برانستون وجامعة نيويورك. ولكن لا غرو فتوماس ألفا اديسون كما قيل فيه عن حق « قد فاقت عبقريته بالخير على البشرية جمعاء » .

بحث فى السرعة

تدور الأرض حول الشمس بسرعة قدرها ١٠٤٫٠٠٠ كيلومتراً في الساعة ويتحرك النظام الشمسي داخل الفلك بسرعة قدرها عدة مئات الألوف من الكيلومترات في الساعة الواحدة ومع كل ذلك فاننا لا نشعر بهذه السرعة العظيمة في أثناء حركة أمنا الأرض . غير اننا نشعر بسرعة السيارات والقطر بالرغم من ضآلتها النسبية .

ان في مقدور الانسان أن يقطع سيراً على الأقدام مسافة قدرها ٥٫٤ كيلومترات في الساعة . وفي امكانه أن يقطع نفس هذه المسافة في أثناء السباحة . وفي وسع الراكد الجد أن يقطع مسافة قدرها ١٣ـ١٥ كيلومتراً في الساعة . وأما راكب الدراجة فقد يقطع مسافة قدرها ٦٠ كيلومتراً أو يزيد .

ومن ناحية أخرى فان الحلزون يقطع في الساعة ٠٫٠٠٧ من الكيلومتر في الساعة (٧ أمتار في الساعة) ويقطع الحصان حوالي ١٦ كيلومتر في الساعة ، في حين ان الحمام الزاجل يطير بسرعة تقدر بـ ٦٥ — ١٠٠ كيلومتر في الساعة ، ويقطع الكلب السلوق ٩٠ كيلومتراً في الساعة ، وقد تبلغ سرعة العقاب ١٠٨ كيلومترات في الساعة

وقد توصل الانسان باستخدام الريح أن يقطع في قاربه حوالي ٣٠ كيلو متراً في الساعة

وتطورت سرعة القطار منذ عام ١٨٣٥ تطوراً محسوساً فقد بلغت سرعة بعض القطر الأوربية في عام ١٨٥٠ حوالي ٢٥ كيلو متر في الساعة وازدادت هذه السرعة في عام ١٩٠٠ إذ بلغت ١٠٠ كيلو متراً . وفي عام ١٩٣٣ كان قطار هامبورغ يسير بسرعة قدرها ٢٣٠ كيلو متراً في الساعة .

وبينما كانت سرعة بعض السيارات في عام ١٨٩٠ لا تزيد على الـ ١٠ كيلو مترات في الساعة ، إذ بها تبلغ في سيارات السباق حوالي :

٥/١٩٥ كيلو متراً في الساعة في عام ١٩٠٥
٢٢٨ » » » » ١٩١١
٣٤٣ » » » » ١٩٢٨
٤٨٣ » » » » ١٩٣٥
٥٠٢ » » » » ١٩٣٧
٥٧٥ » » » » ١٩٣٨

هذا ويقطع الترام في الساعة مسافة قدرها ١٨ — ٢٨ كيلو متراً في الساعة ، وتقطع البواخر عبر المحيط مسافة قدرها ٣٦ — ٥٤ كيلومتر في الساعة والقطر السريعة ١١٠ كيلو مترات في الساعة والقوارب البخارية ١٤٠ كيلو متر في الساعة والسيارات ١٥٨ كيلو متر في الساعة . والدراجات البخارية في أثناء السباق ٢٦٠ كيلو متر في الساعة .

وقد أدى رقي صناعة الطائرات الى تقدم في السرعة منذ اختراعها في عام ١٨٩٦ بصورة فعلية تقدماً يستحق الاعجاب والتقدير ، فقد بلغت سرعة الطائرات في أوائل الحرب العالمية الأولى حوالي الـ ١٢٠ كيلو متر في الساعة ، وبلغت في أثناء سني تلك الحرب ١٦٠ — ١٨٠ كيلو متر في الساعة . وفي عام ١٩٣٢ كانت تبلغ سرعة بعض الطائرات ٣٦٠ كيلو متراً في الساعة ، وبلغت الرقم القياسي ٧٤٧ كيلومتر في الساعة في عام ١٩٣٩ وتبلغ الآن ٩٠٠ كيلو متر في الساعة .

أما الطبيعة فهي تفوقنا سرعة في بعض النواحي التي لا يمكن أن يتصورها العقل . فقد تبلغ :

سرعة الريح العادي	٧ كيلو مترات في الساعة
« أمواج البحر	٥٠ كيلو متر « «
« التيار	٥٠ — ١٠٠ كيلو متر في الساعة
« الريح القاصفة (أوركان)	١٨٠ كيلو متر في الساعة
« الصوت في الهواء	٥/١٦٠ « « «

وسرعة نقطة على خط الاستواء ١٦٧٠ كيلومتر في الساعة ، وسرعة دوران الأرض حول الشمس ١٠٤٤٠٠ كيلومتر في الساعة ، وسرعة الكهربائية في السلك التليفوني ٤٢٠٠٠٠٠٠ كيلومتر في الساعة ، وسرعة الضوء ١٠٨٠٠٠٠٠٠ كيلومتر في الساعة .

محمود بهجي الخياط

باب الأخبار العلمية

من معجزات العلوم والفنون

الكيمياء تكشف عن النفط « البترول »

لو قال لك قائل خبير ، إني إذا فحصت قبضات من الثرى الذي في عقارك ، أمكنني أن أثبت أو أنفي وجود النفط فيه أو خلوه منه ، لعراك الدهش .

ولكنك إذا عرفت السبب ، بطل العجب . وأساس هذه المعرفة هو العلم الحديث المسمى جيوكيمستري Geochemistry ، أي الكيمياء الجيولوجية التي تهدف الى البحث العديد ، عن النفط ، فوق سطح الأرض المديد . إلا أنه لم يُسمع منذ بضع سنين ، شيء يذكر بشأن هذا العلم العتيد ، الذي يقضي بتحليل التربة السطحية تحليلا كيميائيًا لمعرفة احتوائها على النفط أو خلوها منه . وهذا العلم من شأنه أن يفضي لا محالة الى إحداث انقلاب كبير في وسائل استكشاف الزيت المعدني (النفط) في جوف الأرض ، ثم توفير بضع مئات من ملايين الجنيهات التي ينفقها المنقبون عبثاً ، كل سنة ، في حفر الآبار العقيمة .

ومدار علم الكيمياء الجيولوجية هو دراسة الجزيئات الهيدروكربونية الخفيفة التي تنفتح من جوف الأرض الى سطحها ، وذلك من أي نبع رخيّ للنفط تحت طبقات الثرى . وما فتئت العقبة الكأداء ، كون هذا الدليل القاطع على وجود النفط في باطن الغبراء ، يبدو مادةً ضئيلاً جداً فلا يتاح تقديره . وثمة حائل آخر ، هو أن بعض دقائق النفط والغاز ، قد تسهدف في خلال فورتها الى سطح الأرض ، لتقلبات كيميائية ، إما عن طريق التأكسد ، وإما بالاستقطاب ؛ وهذا مما يفضي إلى تضارب الآراء في تعيين أيّة الهيدروكربونات التي تتكشف للمنقبين ، تكون ممثلة للعلامات الدالة على وجود منبع النفط .

ولا يزال هذا العلم الحديث يافعاً ، يتطلب تجربة عشى الوسائل الفنية والطريقة الحالية المألوفة منها تقوم بجمع نماذج طفيفة من التراب غير الملوث الذي يوجد عن بضع أقدام من سطح الأرض، ثم تعريض هذه النماذج بطريقة فنية جديدة من طرق المعامل الكيميائية تعرف باسم « طريقة استخراج الغاز بالحرارة المنخفضة » وقوامها تسخين كل نموذج منها حتى يستخلص منه ما يحويه من طفيف الغاز فيجمع . ثم تجري فيه سلسلة من وسائل التبريد . وهذه تفضي الى فرز العناصر المختلفة التي ينطوي عليها الغاز ، بعضها عن بعض فيتسنى قياس كل منها على حدته . وبهذا الفرز يمكن وزن المواد التي توجد في الكميات المتناهية جداً التي لا تزيد على جزء من بليون . وأغرب ما يمتاز به علم الكيمياء الجيولوجية هو نفي وجود النفط مباشرة تحت التربة التي تشتمل على المواد الهيدروكربونية . ولذلك ينصح خبراء هذا العلم مباشرة الحفر في جانب واحد من جوانب المنطقة المبحوثة . وهم يتوخون بذلك أن المقدار الكبير من المادة التي تتصاعد من نبع النفط ، فتطفو على سطح الأرض حاملة المياه والمواد الكيميائية ، تؤلف حداً منيعاً لا تستطيع اختراقه جزيئات الغاز ، فلا تطفو على سطح الأرض أما الغاز الذي يرتفع حينئذ فلا بد له من الافلات من حول أطراف ذلك السد المحكم .

وتتخذ عادةً العلامات السطحية الخاصة بوجود النفط ، شكل هالة غير كاملة فتبين حدود النبع . ويوجد النفط بالتنقيب في محيط تلك الهالة لا في الهالة نفسها . غير أنه في بعض الأحوال قد تكشفت للمنقبين على سطح الأرض ، مناطق هالات متحدة المركز ، تدل على منابع نفط في أعماق مختلفة . وقد أثبت التنقيب الذي أحدث فيما بعد صدق هاتيك التكهنات .

ومن أحدث المخترعات في علم الكيمياء الجيولوجية طريقة المقياس الكيميائي . ويقصد بها دراسة المادة التي تُنفذ الى سطح الأرض في خلال حفر بئر النفط . فيدلُّ هذا التحليل الكيميائي على العمق الذي بلغته المثاقب في ثقب البئر المنبع الذي يعلو البئر، ثم انه يتيح التقدير التقريبي لما يجب ثقبه من الأرض حتى يعثر الحفارون على النبع ذاته . ولما كانت طبيعة جزيئات الغاز ، الافلات افلاتاً جانبياً من مقرها ، كما تفلت منه رأسياً ، اتخذ المنقبون هذه الحقيقة وسيلة لرسم الخريطة التي تبين الموقع الحقيقي للنبع وذلك عندما يقومون بحفر عدد من الآبار الضحلة « الخالية » ثم أن طوائف المواد الهيدروكربونية التي تبلغ سطح الأرض عن طريق شتى الينابيع ، يقومون بمقابلة بعضها ببعض ليتخذوا منها دليلاً صادقاً على السبيل الواجب سلوكها للكشف عن البئر التي أفلتت منها هاتيك الهيدروكربونات

أو اثبات حقيقة خلو منطقتها من النفط. وقد بدأ التوصل بعلم الكيمياء والجيولوجية منذ نحو ١٥ سنة فبذلك المجهودات حينئذٍ في جمع عاذج ضئيلة من الغاز المتفشي في التربة السطحية، وذلك بوضع أنابيب في الأرض ثم تحليل الغاز الذي يوجد فيها بعد غرزها مدة أيام. وكانت هذه الطريقة بطيئة، غير صالحة للعمل. أما الطريقة الفنية الراقية المتقدم وصفها المستعملة حالياً فقد اخترعت منذ سنة ١٩٣٨. وهي من نتائج مباحث العلماء الدكاترة روور وما [illegible]

وما يرجح هذا العلم يستخدم بخاصة لاثبات القبابا التي تكشف من رد فعل الطبقات الأرضية، أكثر مما يستعمل كآلة لاستكشاف المنابع الزيتية. لأن علم الزلازل يعد العالم الجيولوجي بصورة النماذج التي في جوف الأرض وعمقها، وذلك بتقدير الزمن الذي تستغرقه موجات الهزات الأرضية التي تتولد من انفجار البارود والديناميت في السطح المراد اجراء رد الفعل فيه، من الطبقات السفلية، فيكشف عن الجيوب التي قد يوجد فيها النفط. ومباحث علم الكيمياء الجيولوجية على سطح الأرض، تقدم دليلاً صحيحاً على وجود النفط وجوداً حقيقياً في ذلك الجيب أو خلوه منه. وقد نجحت في الارشاد الى مقرّ النفط قبل حفر البئر الأولى، في منطقة جديدة، كما أفلحت في تحديد الحدود الصحيحة للمناطق الزيتية المعروفة. وهي المناطق التي كانت تكشف بعد انفاق المبالغ الباهظة في الحفريات، منتجة كانت أو عقيمة. ولا يخلو هذا العلم في حالته الراهنة من الخطأ، شأنه في ذلك شأن كلّ فن حديث، وكذلك علماؤه ليس في وسعهم تحديد القدر الذي يحتمل وجود النفط فيه، ولا يمكنهم أيضاً التحقق من غزارة النفط وما يدرّه من الأرباح التجارية أو عدم صلاحيته لذلك. بيد أن في طاقتهم تمييز منابع النفط من منابع الغاز، كما أن في استطاعتهم التكهن بتقدير أهمية النبع الجديد تقديراً تقريبياً

وقدّر المختصون أن المكتشفات التي نجمت عن الهزات الأرضية أسفرت عن نتائج باهرة بنسبة ٣٣٪ وذلك في الآبار التي تمّ حفرها. هذا ويتوقع علماء هذا العلم أنهم سيتاح لهم بالطريقة الجديدة التي وفقوا لها الحصول على نتائج حسنة بنسبة ٥٠٪ أو أكثر في الحفريات الجديدة. ويعتقد خبراؤه أنه عند ما تتم التحسينات المنتظرة اللازمة في هذا العلم، سوف يتيسر تكشف جميع الينابيع النفطية التي ما زالت خافية على المنقبين في جوف الأرض.

وأهم المنتجات التي تستغلّ من النفط هي الوقود بأنواعه وزيوت تزييت الآلات جميعها. إلاّ أن النفط هو المادة الأولية التي غدت أساساً لعشرات من الصناعات

الجديدة الأخرى . ولقد لقيت المشتقات الهيدروكربونية ميادين جديدة حتى لمنافعها ومنها أنواع المطاط الصناعي . وهي من بعض الوجوه ، أرقى من المطاط الطبيعي . والنفط قوام ذلك الكاوتشوك . ومن النفط أيضاً يستخرج كربت الصود والحامض الكبريتيك والجليسرين وغيرها من المنتجات الثانوية . وبالكيمياء ينتج من الهيدروكربونات مفرقعات وأصباغ وأدوية وطيوب ومركبات عطرية وما شاكلها من المواد . وغازات الأولفين Olefin وهي هيدروكربونات غير مشبعة تستخرج من تقطير النفط تقطيراً إتلافياً . وهي وسيلة لإنضاج الفواكه ولتعجيل نمو النباتات . وقد نجحت هذه الغازات في تعجيل إنضاج الطماطم والليمون الهندي انضاجاً تاماً ، وفي غير ذلك من الحاصلات الزراعية . وذلك في زمن أقصر كثيراً من المألوف في موسم نموها . ولغازات البيوتن Butene مثل ذلك التأثير الحميد في تعجيل إنضاج ثمار الجوز والخوخ والتفاح والكمثرى ، هذا إذا غطيت كل شجرة مثمرة منها بخيمة لا يتخللها الغاز ، ثم أطلق عليها قدر طفيف من البيوتن تحت الخيمة مدة ساعة .

هذا وقد تحققت الفائدة التجارية لكثير من المشتقات النفطية التي كانت تعد من الطرف الكيميائية عند بدء استخراجها . ومنها أوكسيد الاثيلين وهو لا يضر الناس ويستعمل لتبخير التبغ والغلال . ويستعمل الاثيلين ethylene والبروبين propene كمخدرين جيدين . ومع كون أهمية النفط تموسقة تأخرى فما برحت طريقة تركيبه من المعضلات التي لم يصل العلم الى حلها ، إذ يعلم يقيناً الكيميائي الخاص بالهيدروكربونات أن النفط مؤلف من الهيدروجين وجزيئات الكربون ، ومع ذلك لا يجرؤ أيّاً كان على تركيبه تركيباً كيميائيّاً من تينك المادتين . ويسرنا أن نذيع على قرائنا أن فريقاً من نوابغ علماء صناعة النفط في أمريكا ، الذين لا يصبرون الى الاعلان عن ذواتهم أو إذاعة مباحثهم ، قد عكفوا على حل هذه المعضلة ، ولا يبعد أن يلقوا أمانيهم ذات يوم فيتاح لهم صنع الهيدروكربونات كما يشاءون ، فيصبح انتاج النفط علماً من العلوم الصحيحة التي تكفل للعالم الحصول على احتياجاته المستفيضة من النفط في كل عصر . والفينول phenol الذي يستخرج من الغازات التي تصاعد من معامل تكرير النفط ، كثيراً ما يفوق أمثاله التي تستخرج من قطران الفحم الحجري . وذلك في قتل الجراثيم والفطر ، وفي منع العفونة وفي ميادين المطهرات . والنفط هو المادة الأساسية لصنع الخيوط الصمغية الجديدة التي تمتاز بمنع تجمد المنسوجات التي تدخل في نسجها . ومنها النفثيت الذي يصنع من ذلك الشعر الصناعي وقد ثبت نجاحه وطول بقائه .

تجديد القلب بترقيعه من عضلات أخرى

اخترع طبيبان في كلية جامعة نيويورك للطب طريقة فنية توصلا بها إلى نقل عضلات حية من أجسام الكلاب ، واستعمالها بدلاً من أجزاء ميتة من عضلات قلوب الكلاب المصابة بأمراض القلب . وقد أفضى نجاحهما في هذه الجراحة الجديدة الى تفاؤل البشر المصابين بمثل هذه الامراض .

وخلاصة هذا الاسلوب أن تنقل شرائح من عضلات بطون الكلاب وسيقانها ثم ترقّع بها قلوبها فتشفي أمراضها وذلك في خلال يومين أو ثلاثة ايام فتأوي عقب برئها الى حجرها في منازل أصحابها .

أول مصنع يستخدم الطاقة الذرية لادارة آلاته

سينشأ خلال هذه السنة في إقليم تنيسي بالولايات المتحدة الاميركية ، مصنع تسخر فيه الطاقة الذرية تسخيراً مباشراً لنفع البشرية ويقول العلماء الذين تستخدمهم شركة موانسانتو الكيميائية لاتمام هذا العمل الخطير الشأن إن الوسيلة التي يتوصلون بها الى أمنيتهم ، تقوم بتسخير النار بتأثير الذرات الموضوعة في حجرة أخرى مجاورة له ممثلة في قضبان من اليورانيوم عيار ٢٣٥ وحينئذٍ يسيل الغاز الى حجرة أخرى مركزية حيث يلامس أنابيب مملوءة بالماء فيتولد البخار فينطلق الى توربينة بخارية . وعنه تدير في دورها مولداً لتوليد الطاقة الكهربائية . وعند ما يتم استعمال البخار يُوجَّه الى مكثف حيث يتحول ماء فينقل مرة أخرى بالمضخات الى الجهاز عينه .

سبب زرقة مياه المحيطات

أثبت عالمان أمريكيان هما الدكتور ف . ا . جنكينز أستاذ الطبيعيات في جامعة كاليفورنيا والدكتور باون مدير مرصد جبل ولسون ، أن الاعتقاد السائد أفكار الناس ، وهو أن زرقة مياه المحيطات تنجم عن انعكاس زرقة الجو على صفحاتها ، هو اعتقاد فاسد . وذلك بما تبين لهما عند ما كانا يستخدمان أشعة الضوء في اكتشاف الفواصات المتسللة في الاعماق ، حيث اتضح لهما أن دقائق الغبار التي تحصى بالملايين التي تحويها مياه المحيط ، تعكس ضوء الشمس ثانياً على سطح المياه . بيد أن النور الذي يصعد الى السطح يتم ترشيحه بمروره في عدة أقدام بين طبقات المياه حيث تقوم المياه بامتصاص اللونين الاحمر والاصفر من الضوء ، وتترك الألوان الخضر والزرق والبنفسجية فيتحد بعضها مع بعض فتؤلف الازرق والنيلي وهو اللون المألوف لمياه أعماق المحيط .

استخراج الزيت المعدني من صخور السجيل

تحصل بلاد السويد على كثير من الزيت المعدني الذي تحتاج إليه ، وذلك بطريقة طريفة هي تسخين صخور السجيل[1] الغائرة في أرضها على عمق ٧٥ قدماً إذ تجذب الأبخرة فتحوّل بالتقطير منتجات نفطية شتّى . ويتوصلون الى ذلك بإحداث ثغرات صغيرة في الأرض لا يزيد قطر كل منها على عقدي أصبع وذلك بغية غرز مُسخّنات كهربائية في تلك الفجوات الأرضية لتسخين ما يوجد في جوفها من صخور السجيل تسخيناً يبلغ ١٠٠٠ درجة بمقياس فارنهيت . وهي حرارة شديدة كافية لاستخراج النفط من صخور السجيل بخاراً يتصاعد من هاتيك الفجوات حيث تستقبله آلات مُبرِّدة فتصيره سائلاً فيسيل في أنابيب إلى مقدار التكرير حيث يتم تكريره على ما يرام .

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن بلاد السويد شرعت في تنفيذ هذه الوسيلة الغريبة في ابان الحرب العالمية الثانية إذ كادت تضطرها الظروف القاسية حينئذٍ الى الاعتماد إعتماداً كلياً على استعمال خشب غاباتها ، إمّا وقوداً وإما مصدراً لتوليد الطاقة الكهربائية

وقد أذاع حديثاً الدكتور جوستاف إيجلوف مهندس النفط الموظف بشركة المنتجات النفطية العامة الأمريكية ، وذلك عقب أوبته من أوربا أن بلاد السويد استطاعت بتلك الطريقة في خلال الحرب الحالية استنباط ألفي برميل من النفط يومياً وذلك الى جانب حصول الشركة القائمة بالمشروع نفسه على نتيجة طيبة أخرى هي انتاج طحالب وخضراوات أخرى فائقة الأحجام من التربة التي تعلو طبقات الصخور المشار إليها التي تُسخّن على النحو المذكور آنفاً . ثم زعم الدكتور إيجلوف أن التربة نفسها سوف تحتفظ بمعض هاتيك الحرارة ٣٠ سنة تمتاز في خلالها بتحسن خصبها

بنيسيلين صناعي يشفي من السل

أتيح لفوج من أساتذة الطب في كلية كورنيل الأمريكية تركيب بنيسيلين صناعي ينتظر التذرع به الى مكافحة الأمراض مكافحة ناجحة . وذلك لأنهم يعتقدون بتفوقه على البنيسيلين الطبيعي فيصبح سلاحاً فتاكاً للقضاء على أدواء التدرن الرئوي والانفلونزا وعلل الأطفال ، وغيرها .

عرض صبري

(١) السجيل Shale حجارة كالطين اليابس

مكتبة المقتطف

ضبط الأعلام

للعالم المحقق المرحوم احمد تيمور باشا : نشرته لجنة نشر المؤلفات التيمورية

١٨٠ صفحة من القطع الكبير ، القاهرة ١٩٤٧

كنت في مجمع فؤاد الأول للغة العربية أسام في أعماله العلميّة ، وعرضت للمجمع مسألة من أهم المسائل اللغوية هي تسجيل اللهجات المصرية والمبادرة بهذا العمل قبل أن يطغى على هذه اللهجات تعليم الفصحى في المدارس والجامعات . وذلك بدرس هذه اللهجات من علاقة وثيقة بتاريخ الأمة المصرية وهجرة القبائل العربية واستيطانها في أنحاء الوادي ، وبما لدرس اللهجات من علاقة بمقابلة اللهجات المصرية بلهجات الجزيرة العربية ، تحقيقاً للعلاقة الواقعة بين قبائل العرب الاسلاء والعرب المستوطنين في وادي النيل .

وشهد هذه المناقشة الأستاذ تيمور رحمه الله ، فقال انه يعلم ان للمرحوم احمد تيمور باشا بحثاً في هذا الموضوع اطلع على شيء منه وانه من البحوث القيمة في اللهجات المصرية وعلاقتها بلهجات القبائل المستوطنة ، وأشار على المجمع أن يستأذن في نشر هذا المخطوط وانتهى الأمر عند ذلك .

أما وقد تألفت لجنة لنشر المؤلفات التيمورية ، وظهرت باكورة أعمالها بطبع كتاب «ضبط الأعلام» ، فقد تقدمنا إذن خطوة كبيرة في سبيل الانتفاع بما خلف ذلك الرجل العظيم الذي ضحّى بماله وصحته في سبيل العلم ، وظلّ طوال حياته عاملاً في صمت ، منتجاً في خطوة ، فأن العلماء الذين يذكرهم التاريخ ولم يعرف عنهم أهل زمانهم إلاّ النزر اليسير .

وكتاب «ضبط الأعلام» من الكتب التي يندر أن يوجد لها مثيل في المؤلفات العربية ، فإن نطق هذه الأعلام يكاد يكون على ألسنة الأدباء والقارئين رطانة لا تفهم ولا تمت إلى أصل الاسم بشيء . فهذا المعجم الأدبي التاريخي من المؤلفات التي لا يستغني عنها أديب أو طالب أدب أو مؤلف يتحرى الدقة في ضبط الأعلام التي تعرض له .

رحم الله تيمور باشا فقد خلف لهذه الأمة العربية في آثاره ما لا يبليه كرّ الجديدان .

١ — أبو ذر الغفاري

للأستاذ عبد الحميد جوده السحار

لجنة النشر للجامعيين — ١٠٢ صفحة من الحجم المتوسط

هذا كتاب من كتب السِّيَر أجاد إخراجه الأديب الشاب الأستاذ عبد الحميد جوده السحار ونال من الذيوع والانتشار ما حدا بالمؤلف إلى طبعه أربع طبعات في أقل من أربع سنين .

أما محور الكتاب فهو أبو ذر الغفاري الصاحب الزاهد الذي ما أصاب مالاً إلاّ بددته في فعل المعروف وما عهد إليه في كنز إلاّ وزعه على بسطاء الحال وأدنياء القوم . ما غلّ يده قط أمام فقير عضّته الحاجة بنابها، وما عرف الترف والثراء في دنياه، ولو شاء لدانَ له الجاه وبدر الذهب .

وممعث زهد أبي ذر إيمانه بالله وثقته بسابغ رحمته بخلائقه ، ولذلك لا يفتأ يوزع الخيرات كلما ترامت إليه ، غير ضنين بها ولا مؤثر نفسه على سواه ، فضلاً عن دأبه في دعوة رفاقه وأترابه ومواطنيه الى الاحتذاء به في بسط اليد والحنوّ على المعوزين .

جاءه من يقول له : « انك امرؤ ما تبقى لك ولد » فأجابه إجابة الواثق : « الحمد لله الذي يأخذهم من دار الفناء ويدخرهم في دار البقاء » .

هذه لمحات كالأطياف من حياة أبي ذر الغفاري الذي عنّ للأستاذ السحار أن يلقّبه « بالاشتراكي الزاهد » وينسب إليه الدعوة إلى نشر الاشتراكية في صدر الاسلام والترويج لهذا المذهب الاجتماعي قبل أن يعرفه اقتصاديو القرن التاسع عشر ويجعلوا له صفة التقديس وليشربه صفة التأليه .

ومهّد انحدار السيرة بمقدمة عن الاشتراكية في العصر الحديث والاشتراكية في الاسلام وقارن بين الاثنتين مؤكداً ان الثانية لم تأمر بإلغاء الملكية واستخدام الناس جميعاً في أعمالٍ لحساب الحكومة بأجورٍ متساوية، وإنما قضت بتقريب الشقّة بين الناس بغير مغالاة إلى مصادرة الأملاك أو إلى معاملة الأفراد على قاعدة واحدة لا يدخل في حسابها الحكيم والجاهل والصحيح والمعتلّ.

٢ — الامام علي بن أبي طالب

للاستاذ عبد الفتاح عبد المقصود

الجزء الثاني — لجنة النشر للجامعيين — ٣٠٧ صفحات

في العام الماضي أخرج الأستاذ عبد الفتاح عبد المقصود الجزء الاول من كتاب «الامام علي بن أبي طالب» فإذا به سفرٌ ضخم يحتوي على مجهود رائع لشابّ لم يتح لي أن أقرأ له أو عنه من قبل. أسلوب رواية ممتاز، وطريقة تحليل جميلة وتقصٍّ تاريخي — إن لم يسعني الحكم على مدى دقته — في وسعي الحكم على مدى شموله ووفرته.

واليوم يطالعنا الأستاذ عبد المقصود بالجزء الثاني لذلك السفر، سفرٌ بصفحات التاريخ وصفحات الحياة في إصدار بيانيّ يمّ عن تمكن واقتدار، وإطار فني يفصح عن ولع المؤلف بصاحب السيرة واستخلاصه مواطن العبرة والشهامة من تاريخ حياة ابن أبي طالب.

بيد أن مما يأخذ بانتباه القارئ أن الأستاذ عبد المقصود، وإن كان قد استطرد واسترسل في سيرة علي بن أبي طالب، غير أن هذا التوسع أفضى الى أن يشغل عثمان القدر المعلّى من السفر الثاني حتى كاد يحقّ للمؤلف أن يطلق على الكتاب اسم عثمان لا علي دون أن يغير حرفاً واحداً مما جرى به قلمه

أما الانطباع العام الذي صاغته مخيلتي بعد الفراغ من تلاوة كتاب الأستاذ عبد المقصود، فهو أن المؤلف قفز فجأة من عالم المجهول إلى عالم المعلوم والتبريز، فلم نعرف عنه أنه تدرّج في معارج الأدب فابتدأ صغيراً واطرد نموّه حتى اكتمل، ولكننا رأيناه ناضجاً دفعة واحدة، يزاحم الأعلام من كتّاب السِّير في مجالهم.

٣ — ديوان الطلائع

للأستاذ أحمد محمد جمال

دار الكتاب العربي بمصر — ١١٢ صفحة متوسطة

يبدو لي أن صاحب هذا الديوان مقتصر .

فهو من شعراء الحجاز المعاصرين ، وهذا الديوان أول نتاج شعري له ينشر في وحدة واحدة ، ولكنه مع ذلك أبى أن يطلع القارىء على جملة ما قرضه من الشعر ، واقتصر على أن يقبل في مستهل كل قصيدة إن المنشور منها في الديوان بعض من ٢٥ بيتاً أو ٤٠ بيتاً أو ١٥ بيتاً . وهكذا . ولسنا ندري ما الحكمة من طبع القصائد في الديوان إذا كانت تورد مبتورة هكذا يضيع أكثرها «في بطن الشاعر» أو في أوراقه الخاصة التي لا تمتد اليها يد القارىء المتلهف على معرفة شيء عن أدب الجزيرة ، ذلك الأدب الذي ظل مقصيًّا به عن التداول العام حقباً طويلة .

* * *

إن استعداد الأستاذ أحمد محمد جمال ، كما يبدو من نظمه ، لا بأس به ، فاكان يضيره أن يقدّم لنا قصائده كاملة لنحكم لها أو عليها ، بل إن هذا كان من شأنه أن يُعلي قدر أدبه ويزيده جمالاً . وهو — على كل حال — متأثر إلى حدّ كبير بشعر شاعر المهجر إيليا أبي ماضي . وقد حاول تقليده في بعض قصائده ، واقتبس فقرات وآراء منه في منظوماته .

وأجمل ما في الديوان — في رأيي — قصيدته التي نعتها « بمرآة الماضي » فهي فريدة في بابها في النظم والنغم . ومن خير ما فيه كذلك تلك الحكم الشعرية التي ترجمها عن الانجليزية ترجمة تكاد تطابق الأصل . وإن كان مما يعاب كثرة الخطأ المطبعي في الأصل الانجليزي المدرج في الديوان .

أما ما عدا ذلك ، فهو شعر يتفاوت جودة وتوسّطاً

وديع فلسطين

١ — مسرحية الأب

للكاتب السويدي ستريندبرج ترجمة الاستاذ وديع فلسطين

بالرغم من أن أدب كل أمة منذ فجر النهضة الاوربية قد مرَّ أو يمر بهذه الادوار — الكلاسيكية والرومانتيكية والرمزية والواقعية ... — إلاَّ أن الباحث المدقق لا يعدم خصائص مميزة لأدب كل أمة تميزه الى حدٍّ قريب أو بعيد عن آداب الامم الاخرى رغم أن أسس النهضة الأدبية في كل أوربا تكاد لا تعدو أدب الاغريق واللاتين

وخصائص الأدب الاغريقي القديم أنه كان يمثل الصراع بين رغائب البشر على الأرض وقضاء الآلهة في السماء وأدب اللاتين تكاد تستغرقه مشاغر الحرب والسياسة أما أدب أمم الشمال وهم الجرمان وسكان اسكندينافيه فيمتاز بالكلف بالحياة في تفاصيلها الدقيقة وكذا بنهمته للبحث عن السر المختفي وراءها وقد وقف الأدب الانجليزي موقفاً وسطاً بين أدب اللاتين وسكان اسكندينافيه هذا بينما الأدب العربي في الشرق أبان حضارة العرب في القرون الوسطى كان طابعه الذي يتميز به هو حب الحياة مكتفياً بجمالها الواقعي عن خلق مثُل عُليا للجمال.

والكاتب السويدي أوجست ستريندبرج يعالج في مسرحيته الفذَّة « الأب » التي قام بترجمتها الى العربية الأديب النشيط الاستاذ وديع فلسطين موضوعاً من صميم الحياة الواقعية بل هو يعرض لأبرز صورها وهي الحياة العائلية فيعرضها عرضاً واقعياً بحتاً وهو يضع في يدك خيطاً رفيعاً جداً من خيوط هذه الحياة المتعددة النواحي ثم يدفعك شيئاً فشيئاً في بساطة متناهية وأنت لا تحس واذا بك في نهاية المسرحية دهشٌ غاية الدهشة تحاول التخلص من الظلمة المخيفة المحيِّرة التي دفعك إليها المؤلف فلا تستطيع ويضاعف من حيرتك وإحساسك بالألم إن هذه المشكلة هي مشكلتك أنت أيضاً إنها تمسك في الصميم بل وكل وليد من بني البشر — انها قصة عائلة أبرز أشخاصها الزوج (ضابط متقاعد) والزوجة وابنة = أراد والداها إن يكملا مساعيها المتفتح بالتعليم فاختلفا على شيء بسيط غاية البساطة هو اختيار المدرسة فيأخذ الموقف يتعقد والقضاة في حيرة عديدة ، وأخيراً تنحاز لجانب أنها . ولو كان مؤلف هذه القصة أديباً من أي أمة أخرى غير اسكندينافيه لجعل هذا الموقف وحده العقدة التي

تبنى عليها المسرحية ثم تقود الى الخاتمة المحزنة ولكن ستريندبرج ككل أدباء الشمال مغرم بالخفايا والأسرار فغاص الى ما هو أعمق وأخطر لقد صممت الأم على أن تنتصر في المعركة بأي ثمن فلتتعلم إذن في يد الزوج سلاحه وحقه في السيطرة على مستقبل الفتاة فرمته بأن الفتاة ليست من صلبه .. !! وهنا تميد الأرض تحت أقدام الزوج ويبدو لنا عالم جديد عالم عصري قد يكون في كل بيت ولكنه لا يدري بنفسه إذ لم تكشف له الظروف بعد قناع الخداع ... إننا نقرر أن أدبنا في أشد الحاجة الى أمثال هذه الآفاق الجديدة فهو يسير ويدور في حلقة مفرغة فالجديد الطريف نادر وان إبسن وستريندبرج وغيرهم من أدباء الشمال الذين أثروا أبلغ الأثر في الأدب الأوربي الحديث لا يجوز أبداً أن تجهلهم لغتنا العربية وكما وفق المترجم في الاختيار فقد وفق الى حد لا بأس به في الترجمة.

٢ — كتاب روح وريحان

تأليف الأستاذ أحمد أمين الحجاجي

من المسلم به أن الزعماء تخلقهم البيئة مع استعداد خاص في طبيعتهم وأن أثرهم في البيئة أيضاً لا ينكر وكان لا بد لمصر التي تركز فيها كل تراث الحضارة الاسلامية منذ سقوط بغداد والتي وقفت أمام العالم كله تذود عن هذه الحضارة وهذا الدين أبان الحروب الصليبية ، نعم كان لا بد لمصر وهي للآن ما خلا المدن الكبرى تعيش حياة لا تختلف كثيراً عن حياة المجتمعات الاسلامية إبان القرون الوسطى أن تظهر فيها شخصية تمثل هذه البيئة وتمثل البيئة فيها. وكان لا بد أيضاً أن يكون عماد هذه الشخصية في حركتها هو الشعور الديني الذي كان ولا يزال أقوى المؤثرات في المجتمعات الاسلامية

نعم اننا لا ننكر ان المدن المصرية تكاد تكون قطعة من أوربا أو هي تسير في هذا الطريق وان الخطوط المرسومة لمستقبل الأمة المصرية تهدف إلى هذه الغاية ولكن لا تزال كتلة الشعب العظمى بعيدة عن هذا الهدف .

وقد توفرت ظروف سياسية ساعدت على ظهور هذه الشخصية وهي بروز شخصية

الاستاذ حسن البنا مؤسس جماعة الاخوان المسلمين أكبر جماعة دينية منظمة في الشرق الاسلامي، بل وأكبر جماعة منظمة عرفها تاريخ هذا الشرق — في الوقت الذي توزعت فيه قوى الزعماء، وفي الوقت الذي كثر فيه التنابذ في جو السياسة المصرية حتى تعذر تمييز الخبيث من الطيب تلفت الشعب وبشعوره أدق جهرته العظمى المتدينة فوجدوا رجلاً يضرب على نغمة لا يملكون الا الاستجابة لها وهي نغمة الدين ولم يتوان الرجل عن انتهاز الفرصة التي كان يعد نفسه لها وينتظرها فتقدم الى صدر الصفوف

ومن يطالع كتاب "روح وريحان" الذي يرسم صورة واضحة لحياة هذا القائد منذ شبابه بل طفولته يجد شخصية تكاد تكون صورة لاولئك القادة الذين ظهروا عبر التتالي في التاريخ الاسلامي ... حسن البنا والمخلصون من جماعته لا يختلفون كثيراً عن جماعة الشراة والاباضية تحمساً لمذهبهم، وحسن البنا والمخلصون من جماعته لا يقلون عن هؤلاء الدعاة الذين هدم بهم أبو مسلم الخراساني دولة وأقام دولة، بل ولم نذهب إلى أمس البعيد وأمامنا منذ حي اليوم وان كان في غير العالم الاسلامي ؟ هل يختلف حسن البنا وجماعته في حماسهم الذي لا يحد وإيمانهم الخارق عن جماعة الصهيونيين ؟ وإننا لنتساءل أما كان واجب العالم الاسلامي أن يوجد هذه الجماعة لو لم توجد تقف أمام الصهيونية بأطماعها وأحلامها وإيمانها ؟ وهل يقل الإيمان إلا الإيمان والحديد إلا الحديد ؟ إن سياق حياة هذا الرجل في كتاب "روح وريحان" يعطينا صورة صادقة كل الصدق عنه وهي غاية في البراعة والجمال، وأن الرجل الذي عاش حياته متحلياً بهذه المبادىء الخلقية الرفيعة التي طُبع عليها ويريد أن يطبع عليها الملايين لا بد وأن يكون شيئاً يحسب له ألف حساب في تاريخ هذا الشرق. واعتقادي أن رسالة الاخوان وحسن البنا بالذات ستبرز لها أقوى مقوماتها يوم تصطدم الصهيونية بمقدسات المسلمين اصطداماً مسلحاً في فلسطين التي يعتبرها مؤسس الاخوان جزءاً لا يتجزأ من الوطن الاسلامي الذي لا يتفاضل في نظره جزء فيه عن جزء. وللأستاذ الحاجي الشكر على ما بذل من جهد وعناء في هذا الكتاب.

محمد فرحات

١ — الغرر التاريخية في الأسرة اليازجية

للاستاذ عيسى اسكندر المعلوف — جزآن من القطع الوسط —

طبعا بالمطبعة العلمية بدير القلص قرب صيدا (لبنان)

للعالم المؤرخ الكبير الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف آثار روائع وبحوث عالية في التاريخ والأدب، امتلأت بها مجلته « الآثار » وكثير من المجلات العربية في مصر وسوريا ولبنان والمهجر، وكنت قد علمت منه حين وفد على مصر عند اختياره عضواً بمجمع فؤاد الأول للغة العربية أن من الموضوعات التي توفر على بحثها وأعدّ العدة لإخراج مؤلف كبير عنها — تاريخ الأسر الشرقية . . . والأستاذ المعلوف اذا بحث موضوعاً وهبه من عنايته ومن موفور اطلاعه ومن معلوماته الواسعة، ومما تهيأ له جمعه من نوادر المخطوطات ما يجعل للموضوع قيمته النفسية .

* * *

وكان من نتيجة الفكرة التي أخذ بها نفسه وعمل على إبرازها أن وضع كتاباً قيّماً في تاريخ الأسرة اليازجية التي اشتهر كثيرٌ من أفرادها في عالم الأدب، وارتفع صيتهم في سمائه وخلدت أسماؤهم .

والكتاب المخطوط الذي وضعه الأستاذ المعلوف عن هذه الأسرة ضخم، ولكن المؤلف نشر منه فصولاً مختصرة في مجلة « الرسالة المخلصية » ومن ثمّ أخرج هذا البحث المختصر على حدة في جزئين، الأول منهما ويقع في ١٢٨ صفحة تناول فيه تاريخ الأسرة اليازجية العربية الأصل الحورانية المنبت وقد هاجرت الى حمص في نحو القرن الخامس عشر للميلاد ونشأ منها كتّاب لولاة حمص فلُقّب جدهم الأعلى باليازجي وهي كلمة تركية معناها « الكاتب » ثم صار هذا علماً للأسرة، وقد تفرّع من هذه الأسرة فروع كثيرة اختص المؤلف في كتابه بالبحث الفرعَ اللبنانيَّ منها . ثم ترجم لمشايخها العلماء أمثال المشايخ عبد الله وناصيف وحبيب وخليل وابراهيم ثم أولاد الشيخ ناصيف وإخوته مع ذكر آثارهم

الأدبية المطبوعة والمخطوطة . ولكل منهم فضل لا ينكر وبخاصة الشيخ ناصيف واليازجي ابراهيم .

وقد تناول المؤلف في الجزء الثاني — ويقع في ١٤٣ صفحة — تاريخ أسهار هذه الأسرة وبناتهم وأصهارهم . . . وفي هؤلاء من ارتفع صيته الأدبي كالشيخ سليمان الحداد وولديه نجيب وأمين الحداد .

والكتاب المطرع — على اختصاره — موضوعة ضمت الكثير من أخبار المترجم لهم وأشعارهم وتواريخهم وما قيل من المراثي فيهم ، وهو مرجع له قيمته في تاريخ الأدب العربي في القرن الماضي . . فالقارىء يتنقل بين ألوان شتى من الطرائف التي لا يضنّ الأستاذ المعروب بجهده الكبير في سبيل جمعها وتيسيرها ، وعسى أن يوفق قريباً الى نشر هذا الكتاب بالحجم الذي وسمه المؤلف .

* * *

٢ — جمال الدين الافغاني

آراؤه . كفاحه . أثره في نهضة الشرق — للاستاذ قدري حافظ طوقان — ٣٨٠ صفحة من القطع الوسط مطبعة بيت المقدس بالقدس

حياة جمال الدين الافغاني وآراؤه لن يفرغ منها الزمان ، ولن يقف البحث فيها عند وضع كتاب أو كتابين أو عشرة ، لأن حياته كانت بعثاً للشرق ، وكانت تعاليمه ضياءً للشرق ، وكان لتلاميذه أثر بارز في نهضة الشرق لأنهم استمدوا من روحه ومن مضائه ومن جرأته ودعوته للاصلاح القوة التي نقلت الشرق من حال إلى حال .

ولقد قرأت الكثير مما كتب عن هذا المصلح الشرقي الكبير ، والمحاضرة التي ألقاها الأستاذ قدري حافظ طوقان في النادي الرياضي الأدبي بنابلس وفي القدس وغزة والقدس إحياءً لذكرى الافغاني بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاته . ثم طبعها بعد ذلك ، هي على وجازتها من أمتع ما كتب عن الافغاني وتحليل آرائه وعرضها . والاستاذ طوقان من علمائنا النوابغ عرفه قراء المقتطف منذ سنوات وعرفوا فيه قدرة الباحث العالم مع مقدرة

أدبية وغيرة شرقية تجلت في كتابه « تراث العرب المادي » الذي أصدره المقتطف منذ سنوات .

وقد تناول الأستاذ طوقان في محاضرته أو في رسالته آراء الأفغاني وكفاحه وأثره في نهضة الشرق فبين كيف كان هذا المصلح يتمنى نبذ الخلافات الدينية ونبذ التعصب الديني وانه كان يؤمن بالحق ولا يقف دون رأيه حائل أو رهبة ، وكان يؤمن بحقوق الشعوب في أن تحكم نفسها بنفسها .

* * *

ولعلَّ رده على اللورد سالسبوري حين عرض عليه عرش السودان إبان ثورة المهدي من أبرز سمات قوة هذه الشخصية ومتانة خلقها وتدينها ومعرفتها للحق والجهر به فقد قال الأفغاني للورد : « تكليف غريب . وعرضه في السياسة ما بعده عرض . اسمح لي يا حضرة اللورد أن أسألك : هل تملكون السودان حتى تريدوا أن تعتبروا اليه بسلطان ؟ مصر للمصريين والسودان جزء متمم له » . ولعلَّ هذا هو منطق الحق الذي تنطق به مصر الآن تجلى على لسان مصلح الشرق منذ ثلثي قرن

وعرض رأيه في العلم الصحيح والتمدن وما يجب أن يؤديا اليه وأن العلم الصحيح والمدنية الصحيحة هما الوصول بالعالم الى السلام والرخاء لا السعي في سبيل الاستعمار الذي هو التخريب في رأيه من قبيل أسماء الأضداد .

وانتهى الى أن الأفغاني أصبح الآن فكرة باقية ومعنى خالداً . . . فكرة الثورة والنضال ، ومعنى التضحية والكفاح في سبيل الشرق وخلاصه ، وكرامة الشرق وإعلاء كلمته .

وان رسالة الأستاذ طوقان عن الأفغاني لجديرة بالقراءة لأنها جلت لنا حياة المصلح بما يلهم الشباب العمل في سبيل المجموع وتقدمه والتضحية بالذات في سبيل الرأي والمبدأ والغاية العالية .

حسن كامل الصيرفي

١ — من وراء الأفق

ديوان شعر : ١١٠ صفحة من القطع المتوسط ؛ دار المعارف : القاهرة ١٩٤٧

٢ — معرض الأدب والتاريخ الاسلامي

بحوث متفرقة في الأدب والتاريخ : ٢٣٤ صفحة من القطع الوسط مطبعة الاعتماد : القاهرة ١٩٤٧

كلاهما من نظم الاستاذ محمد عبد الغني حسن

صديقنا الأستاذ محمد عبد الغني حسن من أدباء هذا الجيل الناهضين ، جمع بين ملكة الشعر وملكة النثر ، فهو في شعره نسيج مرقش من ديباجة السابقين ، وفي نثره طابع بدائه من الجزالة والسهولة . فأنت من شعره في أفق يصلك بالحاضر كما يصلك بالماضي ، ومن نثره في جو رقيق ، لا تخدشك فيه خشونة بعض الأساليب القديمة ، ولا تداعة بعض الأساليب الحديثة ، فقد جمع بين الدقة في الأداء والدقة في الأداة .

ولست هنا في مجال التقرير والنقد للأثرين الأدبيين ، وإنما أعرض هنا عرضاً لنواح من فن الأستاذ المؤلف تنويهاً بفضله ، على أن نعود مرة أخرى الى نقد الكتابين نقداً أدبياً مستفيضاً بعد الفراغ من درسهما .

في ديوان من وراء الأفق « قصيدة وقفت عندها طويلاً » ، وهي أبيات خواطر به البحر ، ولست أعلم أحيّ البحر هو الذي أغرى بي أن أقف عندها هذه الوقفة أم براعة الشاعر في خطابه الى ذلك العالم الآزلي :

وقفت بالبحر أستوحيه أهماري ... فهل درى البحر أنبائي وأخباري ؟
يا واسع الصدر ! أسراري مكتمة ... فهل تصون صباباتي وأسراري
وبي من الشوق ما لو كنت تحمله ... لصرت مشتعل الأضلاع بالنار
لا أنت يا بحر تشفي من لواعجنا ... ولا نسيمك ، وهو العابر الساري .

ووقفة أخرى عند قصيدة « أين أنت »

هذي بواكير الربيع فأشرقي ... في فسحة الأفق البعيد المطلق
قلبي ترنّم بالغناء فهيّئي ... لي مقعداً عند الربيع المورق
والقيد أعياني وعض جوانحي ... واعتادني أرق الفؤاد فرفقي
من لي بأجنحة العقاب لعلني ... يوماً أحلّق في الفضاء المطلق
أنا من أضانته الهموم كأنني ... من كربة السجن الكئيب الضيق
ما الأرض من وطري ولا هي دارتي ... كيف المقام على الضرام المحرق

ويكاد يخنقني مشوب عبيرها من لي بروح من مقبلك النقي ؟

وتطول بك الوقفات كثيراً في جنبات الديوان .

أما كتاب معرض الأدب فاسم على مسماه ، إذ جمع بين موضوعات تاريخية وأدبية وفنية فلما عرض لها كاتب من قبل . فقصة الأساطير الاصلامية بحث من أطرف ما قرأت ، ثم الشعر في معارك الحروب ، ورثاء الزوجات في الأدب العربي ، والى جانب هذا فصل عن المجلترة في نظر سائح عربي .

وهذا الكتاب وجهة قومية عربية واضحة المعالم بينة القسمات محصلها ما قال المؤلف في المقدمة « نحن في المؤتمر العالمي اليوم مقبلون على أمور جسام . فمن الخير للعرب أن يستخرجوا مواطن العزة من أنفسهم ، ليأخذوا الأهبة ليومهم وغدهم . ومن الخير لورثة العرب حضارة وثقافة أن يستعرضوا ماضيهم في ضوء التحقيق والانصاف ، لا في بهرجة المبالغة والاسراف . فذلك أجدى عليهم وأنفع لهم ، حتى يكونوا من بناة الخير الذين اذا ورثوا المجد القديم صانوه وأنموه ولم يضيعوه ، وإلا صح فيهم قول القائل .

اذا المجد القديم توارثته بناة السوء أوشك ان يضيعا

مجلة « الضاد » الحلبية

تصدر عدداً خاصاً عن فوزي المعلوف

أصدر صديقنا الاستاذ عبدالله يوركي حلاق رئيس تحرير مجلة « الضاد » التي تصدر في حلب عدداً ممتازاً من مجلته في عام ١٩٣٥ عن الشاعر النابغ المرحوم فوزي عيسى المعلوف بمناسبة مرور خمس سنين بومذاك على وفاته . وفي أول العدد كلمة رائعة لأمير شعراء الاصباني فرنسيسكو فيلا سباسا عن فوزي المعلوف قال فيها إنه « كأنبياء التوراة علق ربابته على غصن سفصافة لتعزف على هوى الريح ناطقة بما في لغة الطبيعة من نبرات خفية تهمس بها الألوهة » .

ويلي ذلك ملحمة شعرية للشاعر الفقيد مؤلفة من أربعة عشر نشيداً تنطق بإبداعه وإلهامه وتراوحت بعد ذلك كلمات وقصائد لأدباء العروبة تصور مجالي العبقرية في الشاعر وتبين الخلال الحميدة التي تميّز بها .

وليت الأستاذ عبدالله حلاق يعني بأن ييسّر للمصريين الحصول على هذا العدد الممتاز من مجلته « الضاد » لأن الشاعر صاحب السيرة من الشعراء الذين يجب أن يكونوا غير مجهولين في ربوع مصر فضلاً عن سائر الأقطار الناطقة بالضاد ، ولا سيما لأن هذا العدد الممتاز فيه من الشاعر المعلوف ما لا يستغني الباحثين المصريين معرفته عنه .

فهرس الجزء الاول

من المجلد الحادي عشر بعد المئة

١ تأثير العرب على الحضارة الحديثة : اسماعيل مظهر
١٦ الوردة (قصيدة) : شاعر البراري
١٧ المدرسة المثلى والتعليم الذاتي : شريف التفاهيبي
٢٧ الحمامة الطائشة (قصيدة) : عدنان مردم بك
٢٩ الحرب تؤدي الى الحرب : ع ش
٣٤ نظرة عامة تشرف على أنظمة الحكم في العالم : ادوار مرقص
٤٣ أسباب القلق الدولي ، الاستعمار : الحائل دون سلام العالم : لسعادة عبد الرحمن عوام باشا : ترجمها عن الانجليزية وديع فلسطين
٤٩ الطعام والهضم : الدكتور عبده رزق
٥٧ المخترع العالمي توماس اديسون
٦٠ بحث في السرعة : حندي يحيى الخياط

٦٢ باب الاخبار العلمية ، الكيمياء تكشف عن النفط : البترول ، تجديد القلب بترقيعه من عضلات أخرى . أول مصنع يستخدم الطاقة الذرية لادارة آلاته ، سبب زرقة مياه المحيطات . استخراج الزيت المعدني من صخور السجيل . بلاستيك صناعي يشبه من السن : عوض جندي
٦٨ مكتبة المنتطف ، ضبط الاعلام . (١) ابو ذر الغفاري . (٢) الامام علي بن ابي طالب . (٣) ديوان الطلائع : وديع فلسطين (١) مسرحية الشاب (٢) كتاب روح وريحان : محمد فهمي (١) الغرر التاريخية في الاسرة البازرجية . (٢) : جمال الدين الافغاني : حسن كامل الصيرفي . (١) من وراء الاثير (٢) معرض الادب والتاريخ الاسلامي — مجلة اضواء المكتبة

١—٣٥ لحق

رحلة الى مصر

في عهد محمد علي باشا الكبير

لمحمد رضا

رحلة إلى مصر

في عهد محمد علي باشا الكبير

تأليف

الدكتور ورنر هوفيستر

نقلها من الانجليزية الى العربية

محمد رضا

رئيس قسم الفهارس بمكتبة جامعة فؤاد الاول

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم

١٩٤٧

مقدمة

رحل الدكتور ورنر هوفيستر الألماني إلى سيلان والهند في بعثة برلس أوف بروسيا. وقد أبحر مع الأمير من مدينة تريسته في ١٦ سبتمبر سنة ١٨٤٤. ومرَّ في طريقه بالاسكندرية ثم سافر الى القاهرة فوصف ما شاهده وصف أجنبي مر بالبلاد. إلاَّ أن عين الأجنبي ترى أكثر. وكان ذلك في عهد المغفور له محمد علي باشا الكبير.

وقد حثني أحد الأصدقاء الأعزاء على ترجمة هذا الجزء من الرحلة لما فيه من وصف لذلك العهد الذي مضى عليه أكثر من مئة عام. وأغلبنا لا يعلم الحالة الاجتماعية وقتئذٍ في مصر. فلبيت طلبه على ضيق وقتي. وقد وجدت أن وصف المؤلف، هو عبارة عن نظرة سطحية إجمالية لكنها مع ذلك تبين حالة مصر في ذلك الزمن وما حدث بها من رقي وتطور عظيم في أكثر النواحي وما لا يزال على حاله إلى الآن بالرغم من انقضاء قرن من الزمان.

أول يونيو سنة ١٩١٧

محمد رضا

لما دنت السفينة من شاطىء الاسكندرية ، شاهدنا عدّة بروج أو ما يماثلها . وظهرت مسلة كليوپاترة وعمود السواري . وكان الشاطىء ، لسوء الحظ ، منخفضاً ، فلم يكن لجميع هذه المناظر غير أثر طفيف في نفوسنا . ثم أبصرنا منظراً خلفناه وراءنا ، منظر الاسطرل المصري الرامي هنا . وقد بلغنا أنه أسطول عجيب ، لكني ألتمس العذر إذا قلت إن منظره كان كئيباً جدًّا حسب ما بدا لناظري . فكل سفينة كانت تبدو قديمة ، غير معتنى بها ، قذرة الشكل . وأغلب السفن باهت اللون وقليل منها عليه مسحة الحياة . وقد رأينا صبياناً سمر الوجوه ، على رءوسهم طواقي حمر ويرتدون سراويل بيض ، وهم يتسلقون الحبال ويقبون بمهارة فائقة .

رأينا بين القوارب التي اندفعت نحو سفينتنا ، قارب تفصلنا وقد كان مبطناً بنسيج قرمزي اللون ، يُسيِّره بالمجاديف أثنا عشر بحاراً سمراً ، حسان الوجوه . في مقدمتهم زنجيّ ، لامع الوجه ، معتدل القوام . فاسترعى نظرنا بنوع خاص . وعلى رأسه عمامة بيضاء . وكان رداؤه العلوي أبيض وكذا سراويله . أما ملابسه الداخلية ، فكانت قرمزية لامعة . وقد بلغنا أن القنصل مريض ، طريح الفراش في القاهرة ، ولذا أناب عنه مندوبين لاستقبالنا ، أحدهما كاتب شاب ، كان دائم الارتجاف من فرط ما اعتراه من الحيرة والارتباك ، وكان الآخر رجلاً عادي المنظر .

وقد حُملت أمتعتنا بلا نظام ثم غادرنا السفينة واجتزنا الزوارق الصغيرة التي يملكها البحارة الذين يحتشدون نحو السفينة . وما أشد ما سمعناه من الصياح والجلبة بين جمهور من الناس ، سمر الوجوه ، قطن الألوف ، غلاظ الأعناق ، يلبسون عمائم ويلتفون بثياب طُحول وسطهم . وليس عليهم ملابس أخرى غير هذه . ووقف على الشاطىء جيوش من الجمال والحمير في انتظار المسافرين . وهنا حدث هجار بسببنا ، غير أنه ما لبث أن هدأ بفضل ما بذله مرشدونا من جهد . وبدلاً من أن نعتلي الحمير التي تكاد تبلغ مبلغ البغال

في الحجم والقوة ، وجدنا لحسن الحظ مركبة خفيفة طريفة ، مبطّنة بحرير أبيض فركبناها ميممين المدينة . فكان أول منظر غريب ابتدر عيوننا الأوربية ، جيش من الحجل ثم الاهالي على اختلاف أشكالهم وهم بدو سمر وبربريون وأحباش سود وعبيد من ساحل أفريقا الغربي ، ذوو أنوف مسطحة ، عريضة ومخيفة . فكان منظرهم مما يدعو الى الاستغراب .

ومما لفت أنظارنا ، نساء الفلاحين المرتفعات . وهنّ يرتدين قمصاناً زرقاً وسراويل وبراقع من الحرير الاسود ذات ثلاثة أركان . وحول عيونهنّ دوائر سوداء ، مصبوغة . واستلفت نظرنا أيضاً ، شرفات المنازل الشرقية ، الدقيقة الصنع . وبعد أن اجتزنا كثيراً من الشوارع المتسعة والضيقة وسط زحام من الناس على اختلاف أشكالهم ، وصلنا ميداناً عامراً بكثير من المنازل الاوربية النمط تماماً وقد بناها محمد علي وهو يطالب لايجارها ثمناً غالياً (١) .

وقفنا أمام منزل من هذه المنازل — هوتيل أوريانتال — وهو مبنى كبير من الحجر مرتفع القامات ، وجميع نوافذه مغلقة : وخلف كل شقة منه ، حجرة بها سريران . وتزين الغرف أريكة جميلة وبيانو وعدة صور باريسية محفورة . ومطبخ فاخر . فكان الفندق بالاختصار هاملاً جميع المزايا المتوفرة في فندق فرنسي أو ألماني حسن . غير أن عيبه الوحيد ، تهافت البعوض الذي يسبب الازعاج والأرق ليلاً في هذه البلاد لسوء الحظ .

لقد قضينا زمناً طويلاً في أول قدومنا مضطجعين على مقاعد النوافذ نتسلى بمراقبة منظر سير الحجل وهي محملة بالاحجار وتسير دائماً سيراً هادئاً حزيناً بخطوات متئدة على وتيرة واحدة . والأهالي المسلمون يرتدون ملابس شرقية زاهية ، ذات ألوان عديدة . والسياح الانجليز والفرنسيون بل والسيدات أيضاً يتنطرن الخيل والحمير وهم يُرون بمجرد أن يلقي الإنسان نظرة حول هذا الميدان الفسيح . ويحمل باعة الفطائر والحلوى والليمون والشربات بضائعهم برشاقة على قمة رؤوسهم . أما السقّاءون فيحملون قربهم المصنوعة من جلود المعز ، وذلك بأن تدلى بطريقة بديعة ثم يخاط العنق والأرجل . وبعضهم يسير على

(١) لا نعلم أن محمد علي باشا بنى في الاسكندرية منازل لايجارها . ولعل المؤلف يقصد ذلك ولم يتحقق من صحته (المترجم)

الأقدام والبعض الآخر يخطون الجمال ويقودون طريقهم وسط الزحام .

وقد قضينا يومين في مشاهدة مناظر المدينة . ومنذ أول يوم قدمنا فيه، ركبنا الحمير وتجولنا في طريق لم نشاهد فيه شيئاً يستحق الذكر . وقد أعجبنا جداً بمنظر القصر الواقع على شاطىء البحر وبمنظر الجزء المخصص لحريم الباشا . فدخلنا القصر وأخذنا نفاوض الحارس وبعض كبار الاتراك الذين اجتمعوا بعد الغروب لتأدية أعمالهم في ليالي رمضان ، وبذلك مهدنا السبيل للحصول على إذن يخول لنا مشاهدة القصر .

أرخى الليل سدوله عندما ركبنا الحمير عائدين الى المدينة التي كان يسودها الظلام ولم يكن هناك ما يفرج عنا هذه الوحشة الا ما كان يبدو من النور الضعيف المنبعث من القناديل . وكان شكل البلح الذي يأكله الناس هنا غير ناضج بديعاً . وكذا كان منظر البرتقال والليمون الأصفر يغري المارة على أكله ، إلا أن الأوربي قلما يستسيغها لغدة حموضتها ، فوقفنا وترجلنا أمام جامع ضخم منه ترنيماً عالياً . وهو يحتوي على باحة فسيحة بها عمد عديدة بيض ، بينها قضبان مدلى منها قناديل . وقد وقف المؤمنون يصلون في صفوف مستقيمة ، كل صف منها خلف الآخر . ويقابل المدخل مباشرة ، المعبد أو أقدس مكان وهو المحراب الذي يقف أمامه الامام . وكلما قال « الله أكبر » سجد جميع المصلين ولمست وجوههم الأرض . فكان لسجود هؤلاء المصلين[1] سجوداً متعاقباً وقيامهم تالياً ، تأثير عجيب بهيج في نفوسنا حتى اننا لم نستطع مقاومة رغبتنا طويلاً في مشاهدة هذا المنظر الطريف . فشاهدناه من خلال النوافذ ذات القضبان الحديدية ومن الباب المفتوح . وفي الحال ألقي علينا حجر فسقط في وسطنا بالضبط غير أنه لحسن الحظ أصابني فقط في جنبي بشدة . ولما فوجئنا بذلك ، كان سرورنا عظيماً عندما أسرعنا وقفزنا فوق سروجنا وسرنا حتى بلغنا مقهى . هناك قدمت الينا « نيشانات » صغيرة — رجيلات — وأخذنا ندخن . فلم يكلفني ذلك أي مجهود . ولم يكن طعم القهوة السوداء رديئاً . وقد جلسنا على أريكة خشبية عالية « دكة » فتدلت أرجلنا في الهواء . وعبثاً حاولنا الجلوس كما يجلس الأتراك ، فتخلينا عن هذه المحاولة يائسين . وقد شاهدنا في هذا المقهى أنواعاً رديئة من خيال الظل

(١) قد تغير الحال الآن فان أكثر المصلين توام في الجوامع مطربشين وأقلهم معممين (المترجم)

مصحوبة بغناء بالدف حسب اللعب عوضاً عن التمثيل المسرحي بين الطبقة الراقية من أهالي الإسكندرية الشرقيين [١].

وفي صباح اليوم التالي (٣ اكتوبر) ، أيقظتني وخزات البعوض الملهبة الذي كان قد نفذ من ستائري الرقيقة . إن هذه الحشرات تنزلق من غير أن يراها أحد داخل الستائر اذا كانت هناك فتحة مهما كانت صغيرة أو ثقب لا يلاحظ حتى بالفحص الدقيق كما تفحص الستائر يومياً . فاذا ما استقرت في مكان ضيق ، لسعت لسعاً مؤلماً جداً .

ثم بدأنا سيرنا في أجمل أنحاء المدينة بصحبة ترجماننا الرومي . وهو رجل متصف بأقل صفات حسن السلوك وأهد الغباوة !.

زرنا في اليوم التالي مسلة كليوباترا ، وهي عبارة عن نصب تذكاري ، موحش المنظر مطمورة في الرمل الى نصفها ومحاطة بجدران كبيرة الحجم متهدمة . وتقتمل تربة هذه الجهة من المدينة الى عمق بعيد على بقايا أحجار جيرية من آثار الاسكندرية القديمة . وتبدو هذه الانقاض كأنها محجر ، تتوخذ مواد البناء من هذا المخزن الأرضي الذي لا ينضب والذي ينهب باستمرار .

لم أجد في زيارتي لمسلة كليوباترا إلاّ شيئاً قليلاً ذا أهمية ، هذا عظاية طولها ١٨ بوصة وعند ما حاولت إمساكها ، أخذت تتسلق المسلة . والعظايات كثيرة الوجود هنا بنوع خاص. وقد طالما ذكرتني بقصة فيلون الآبه عندما كنت أراها تزحف بين أكوام الحجارة في خرائب القصور القديمة .

وقد دهشت من جهة أخرى ، إذ سرتني رؤية الحدائق الشرقية الحديثة جداً ، فيها مظلات مرتفعة ونوافير من المرمر. وقد قصدنا زيارتها راكبين المطايا في ٤ اكتوبر واجتزنا في طريقنا الضاحية ، وهي بالقرب من المرفأ الجديد . ويحف بالجانبين أشجار النخل التي رفعت قامتها على الجدران المتهدمة . وكل شجرة من هذه الأشجار ، تتألق بالثمار العزيزة .

---

(١) انقرض خيال الظل تقريباً بعد أن انتشرت المسارح ودور السينما . أما الاراجوز الخشبية العالية فلا توجد الآن إلا في قليل من المقاهي البلدية كأنها أثر من آثار الماضي البعيد وقد استبدلت بالكراسي العادية (المترجم) .

وكنا نسمع من آن لآخر صرير السانية الهرمة التي غالباً ما يكون مركزها في أعلى قمة تحت ظل الأشجار الكثيفة . ومنها تسقى الحديقة باستمرار . والماء التي العذب أثمن شيء ولا يجلب الى المدينة إلا بواسطة نهري . أما هذه الآبار العميقة ، فلا يتبع منها غير ماء مغلوب بالملوحة لا يستعمل إلا للري اذ لا يصلح للشرب أبداً .

ثم دخلنا بيتاً مرتفعاً ، نظيفاً ، يكاد يكون منظره أوربياً . ومدخله بهو طويل ، مرصوف بنوع من الفسيفساء مجموعات بحرية سود وبيض ، يؤدي الى أول ساحة داخلية يكتنفها نوع من الساتات المائية القصيرة . وجدرانها مكسوة بكثير من أشجار الياسمين والورد الثمين الجميل وبأنواع أخرى من النباتات المعرشة الظريفة ، وهناك ممر طويل مرصوف بقطع من الرخام ومسوّر كذلك بالنباتات المائية وينتهي بكهف أو فسطاط . وهو بناء واسع ، طلق الهواء ، مقيد بخشب مخروط ، شرقي الطراز تماماً وسطه عدّة نوافير ينبثق منها الماء في أحواض من المرمر الجميل . وكل شجرة من هذه النباتات التي تحيط بهذا السياج تمثلة أزهاراً . وان أزكاها رائحة ، الياسمين العربي . وعند هذا المكان ، مدخل الحديقة نفسها ، ينفصل كل ممر من ممراتها ، أسوار مرتفعة من نبات إكليل الجبل — خصالباق — على الأخص . وأعلاها مؤلف من أشجار الدفل والبرتقال والموز . أما النخل فانه يكوّن قسماً خاصاً . وهنا قسم آخر للخضروات ، تُزرع فيه أنواع عديدة من الليمون والقرع الاستمبولي والخيار .

وبما أن رجلنا قد أصيب بنوبة قشعريرة شديدة ، فقد اضطررنا أن نستأنف سيرنا بلا تابع . فتجولنا في منحدر طال على قمة حصن وصعدناه . ومع أن حارس الحصن الذي كان صيء العدة ، قد أشار الينا من أعلى اشارات إنذار واضحة بأن لا نقترب ، فاننا بلغنا القمة في الحال ومتعنا الطرف برؤية المنظر الساحر لكثير من الجوامع بالأسفل . وهي مختبئة بين حدائق النخل ويحيطها من جهة ، بحيرة مربوط ، الشبيهة بالبحر ، ومن جهة أخرى البحر المتوسط . ثم اننا لم نكد نجلس عند نهاية القنطرة المتداعية ، حتى قدم الينا الجند بحالة غضب لاختراقنا حصنهم . وحاولوا طردنا . وقد اجترأ أحدهم فقط أن يمد يده ، لكنه لم يلمسنا بالفعل بل لمس سائق الحمير . وبعد أن ساح الحارس صياحاً عالياً وصرخ صراخاً

عنيفاً باللسان العربي الذي يرن في أي وقت كأنه لغة شعار دائم ، انتهى الأمر بهم إلى تركنا حيث كنا (١)

وعند عودتنا ، اتخذنا طريقنا الى الأثر المسمى عمود بعباي مارين بمسقاة تصب في حوض قذر تغسل فيه الملابس . وهنا رأينا جمعاً من نساء وصبية قذرات يصحن ويتشاجرن وهن يرتدين ثياباً زرقاً وغاية في الدمامة . واللآلئ بلا براقع سوداء منهن ، يمسكن دائماً بأفواههن أطراف أردينهن ويغطين بها نصف وجوههن . وأغلبهن يحملن أطفالهن على جانبي أكتافهن . وكان أهم عمل يؤديه الرجال الواقفون في الحوض هو حك ملابسهم بشهوة .

يؤدي الطريق إلى عمود بعباي ، الى سهل جدب ، محرق ، مغطى بالأحجار والرمال . وهناك كثير من المقابر في جهات شتى تتميز بحجارة قليلة غير مصقولة ، مبنية بالملاط ولا تحت غالباً . أما العمود فقائم بمفرده . والظاهر انه كان تابعاً لمعبد عظيم . لكن ليس لتلميحه ولا لأقسامه أي جمال بل انه يدل بالعكس على ذوق فاسد جمع بين النمط الحديث والقديم (٢)

من هنا قفلنا راجعين إلى قصر الباشا . وان الانسان لا يمكن أن يتصور مكاناً أجمل منه . انه قائم بالقرب من البحر عند المرفأ القديم يشرف على منظر الأسطول بأكمله . وقد بقيت سلالم القصر وقاعة التشريفات من رخام أبيض جميل . وأرض القاعات المستديرة المتسعة مرصعة رصيعاً بديعاً بالأخشاب الثمينة ، وعلى جوانب قاعات الاحتفالات الرسمية ، قاش فاخر مزركش بالصور وهناك زهريات جميلة ، احداها مهداة من الباشا . وكثير من الصور الملونة والأثاثات والخزانات الباريسية المملوءة بالطيور البرازيلية المحنطة وهذه كلها محفوظة بعناية ونظافة بالغة وهي ترى داخل جدران مسكن محمد علي النفيس . هذا والفوق الفرنسي هنا له شأن في تنظيم الترف الشرقي . ثم غادرنا القصر ونحن في غاية السرور . وهو كمثل المباني الشرقية النمط لا يتجاوز ارتفاعه دورين .

بعد تناول الغذاء ، الطلقنا مرة أخرى سائرين على الأقدام في غسق الليل في المدينة

(١) إن عدم تعرض حراس الحصن للسياح وتدريبهم لساني الحير لم يكن جبناً منهم بل لانهم كانوا يظنون أن السياح أجانب وان السائحين هم الذين دلوهم على هذا المكان (المترجم)

(٢) هو عمود بومبيوس الذي بناه تخليداً لذكرى حصار دقليديانوس للاسكندرية ، وهو قطعة من الجرانيت الوردي ، بني على النمط الكورنثي ويبلغ طوله ٢٨ متراً (المترجم)

التي أنشئها الآن الحرية بعد الغروب في رمضان . وأخذنا نمر آناً بشوارع مظلمة وآناً بمحال السمك أو الأسواق المضاءة بمصابيح من ورق ، والمكتظة بجميع أنواع المأكولات . وتمهل لنا إلى أن وصلنا مقهى نظيفاً تمتعنا فيه بالمناظر الشرقية . فهنا ترى المسلم في أحسن أوقات راحته ، يدخن غليونه ، والوجوه السمراء مختلطة بالسوداء ، والسوداء بالنحاسية اللون . والأسمال البالية بجانب الملابس الغالية ، والعمائم والطرابيش . وهؤلاء جميعاً في زحام من مختلف الألوان . وفي وسط المقهى ، نافورة ينبثق منها الماء [1] وكانت القهوة والشيك في غاية الحسن والنادل المرح بسترته وسراويله البيضاء ، يقدم لنا المصطبكي لنضغه فيخرجه من جيبه الذي في أعلى قميصه . ثم جاء بعض الموسيقيين واحتلوا مراكزهم في المقهى زيادة في التسلية . وهم مؤلفون من فتىً أعمى مغنٍّ ، ورجل مسنٍّ يعزف بآلة ذات أوتار ممتدة على لوح كالقيثارة (عود) وكان الدف متمماً لآلات العزف ، وحل مغنٍّ آخر محل الأول لأن غناءهم يستدعي بذل جهد عظيم بسبب عادة هز الرأس باستمرار وأدارة العينين وتقطيب الوجه بشكل لا يتصور . وأعظم جزء من اللحن بالمفتاح الصغير ، فيستعيده أو يطلبه بالاسم صاحب المقهى قبل الغناء ثم يبدي سروره بالتصفيق بيديه . وقد آلم آذاننا عزف الآلات معاً ولاسيما لأنها كانت شديدة القرب منا . فتأهبنا للذهاب الى فندقنا لاعداد العدة للرحيل في اليوم التالي .

في صبيحة ٥ أكتوبر ، ذهبنا الى سطح السفينة التي كانت ستقلع الى قناة المحمودية بعد أن تزودنا بكثير من المؤن وتبعنا ترجماننا ، وهو رجل أسود ، ذو عينين جميلتين واستقل قارباً يجره حمل

كان الريف حولنا قفراً لا أثر للحياة أو الخضرة فيه مما ينقبض له نفس السائح ولم يستلفت أنظارنا غير الأكواخ الطينية والسافية والصقور المصرية الكثيرة وبعض الرجال اليائسين ، أنصاف المتوحشين . وتقع القناة بأكملها في طبقة من الرمل والطين . وليس في معظم أنحاء الرابية التي تكتنفها ، عشب بالكلية .

---

(١) لم أر الا مقهى واحداً بوسطه نافورة في القاهرة . الا أن هذه النوافير قد اختفت من المقاهي وقد كانت تكسبها منظراً شرقياً بديعاً وترطب الجو . (المترجم)

وقد وصلنا متأخرين في المساء الى المكان الذي تتلاقى فيه القناة بالنيل . وبالقرب منه قرية العطف الحقيرة التي يقطن أهلوها مع دواجنهم في دور كأعشاش الخطاطيف ! وملتقى القناة بمياه المجرى محجوز بأبواب خزان . فوجدنا هناك باخرة فخمة مضاءة بأنوار بديعة راسية أمام منزل مؤلف من دورين . وهناك قدمت الينا القهوة . وعند ما صعدنا سطح السفينة ، حيتنا الموسيقى بصوت عال . فوجدنا كل شيء منظماً أحسن نظام . وكانت مؤخرة السفينة محاطة بالأرائك المخملية الارجوانية اللون والحجرة المعدة لنا رطبة ، طلقة الهواء فتمتعنا بنوم منعش جداً لا يعدله شيء وذلك إما لتأثير خيالنا أو من جراء هواء النيل المعتدل المفيد . وفي هذه الاثناء كان جميع خدام السفينة يتجددون كل ثلاث أو أربع ساعات هذا والموسيقى تصدح بقوة والطبول تدق على نغمات أدوار بلليني ودونيزتي . لكن لم يفكر أحد في أن آذاننا تتمزق قطعاً في سبيل تسليتنا . وأخيراً أفهمناهم جلياً أننا لسنا من هواة الموسيقى . وفي صبيحة يوم ٦ أكتوبر ، تناولنا فطوراً خفيفاً جداً . اذ كان زادنا قد نفد سريعاً ولذلك استولت علينا الدهشة عند ما حان وقت الغذاء ورأينا طاهي الباخرة يضع أمامنا صحوناً عديدة من المآكل العربية الشهية وأغلبها مؤلف من أرز أو دقيق ، لذيذ الطعم جداً . وكثير منها لا يلائم ذوقنا لكثرة دهنها ولأنها مصنوعة من دقيق الحنطة والحقيقة إنه لا الطعام ولا الموسيقى المصرية الصاخبة والطبل تعوّض ما تدأصابنا من السآمة من مشاهدة منظر هواطيء النيل .

إن اتساع الماء ولونه المضطرب والأسمر والأصفر ، يملأ السهل المنخفض الأجدب الذي ليس فيه أثر للخضرة التي يتوقع أن يراها الانسان بعد الفيضان مباشرة . ولا يوجد على حافة النهر الخارجية ، غير قليل من الأعشاب الجافة التي تتسابق النوق لرعي كل ذرة منها بغاية السرعة وكذا ترعاها قطعان الجاموس العديدة التي تقف بخراطيمها في الماء المكدر .

هناك ترى في جهات متعددة من خمسين الى مئة نخلة . يبلغ ارتفاع بعضها ثمانين أو تسعين قدماً وهكذا بديع وهي مزينة بمحصول وافر من عناقيد جميلة ممثلة بالبلح الأحمر والأصفر . وعند مرورنا تحت تلك الأشجار النامية بالقرب من جانب الماء ، شاهدنا في الظلام تحت قبة الأوراق الكثيرة على ارتفاع ثمانين رجلاً منهمكاً في جمع البلح داخل سلة ثم أخذ

يلفها ويحملها إلى ذلك المكان المرتفع . وكان الأهالي المجتمعون في ذلك الوقت يرقبون عمله .

والعادة أن يكون لكل مجموعة من أشجار النخل ، قرية صغيرة على مقربة منها . إلا أنه في الغالب يصعب على الانسان اكتشافها لأن ذلك يحتاج إلى عين اعتادت رؤية هذه المواقع .

ان المادة التي تبنى بها الأكواخ ، هي من التربة التي تحت الأقدام . فيأخذ القرويون قطعاً منها ويجففونها في الشمس على شكل قوالب طوب خشن أو على شكل طين جامد غالباً . وبهذه القطع يشيدون مبانيمستديرة أو مربعة أو مخروطية كما يريدون ، لا يتجاوز ارتفاعها غالباً أربعة أقدام . وتقوم الطاقة في البناء مقام الباب والنافذة معاً . وتشبه القرية ، إذا شاهدها الانسان من أي مكان قريب ، مجموعة من أعشاش الخطاطيف ، بنيت بالقرب من بعضها . وإن شناعة داخل هذه التلال الصغيرة ، لتتضح من القذارة الدائمة الحالقة بهذه المخلوقات البائسة الحقيرة الداكنة . وان كانوا في الظاهر يسهلون ترقية نظافتهم بالاقلال ما أمكن من خزانة ملابسهم ! وما أتعس وأفظع رؤية الرجال البائسين والحمال الخشنة المربوطة بالحراف حول صدورهم وهم يجرون القوارب عكس تيار النهر . وأجسامهم مسلوخة سلخاً مريعاً ومغطاة بالقروح كأفظع خيول مركبات النقل عندنا . أما النساء فتتدثرات بثياب طويلة زرقاء قاتمة وهن يتخذن أحد أطرافها لتغطية الرأس . ولا حاجة الى لبس النقاب الأسود حتى في أحوال الدمامة الشديدة

ان النقاب (البرقع) عبارة عن قطعة طويلة من الحرير الأسود ، ذات ثلاثة أركان توثق بأزرار نحاسية إلى قمة غطاء الرأس بحيث يطبق تحت العينين . ومنظر الثوب بأسره ، غاية في الشناعة .

وترى هنا وهناك بحيرة كبيرة من مخلفات الفيضان تجانبها مجموعة من أشجار السنط والجميز . وتحت ظلالها جاموس يجر الساقية لري حقول القمح والذرة الشامية . في حين يسقي الفيضان المرتفع أشجار النخل .

الساقية آلة بسيطة تتركب من عجلة كبيرة ، معلق على محيطها الخارجي قواديس من فخار تحمل الماء الى الخارج من أخدود صغير بالقرب من العجلة وتصبه في حوض من خشب

أو في قناة . ويسمع صرير هذه العجلات في جميع أنحاء مصر ويصاحبه غناء سائق الثيران وهو أعذب منه حزناً لأن العربي لا يؤدي أي عمل من غير أن يقرنه بالغناء . ولهذا الفن شأن وضيع جداً في الزراعة . إنهم يغنون كل شيء من الأنف أو بالحري يضغطون النغمات ثم يخرجونها بكيفية غريبة جداً . لأن معظم توقيعاتهم بالمفاتيح الموسيقية الصغيرة ، ليس لها إلاّ نغمات قليلة . وأخص فنهم ، هو إخراج نغمات بدوية متتابعة لا يستطيع تقليدها الموسيقيون في أوربا حتى بعد جهد جهيد . وانّ لهم صوتاً غريباً . وهو في الغالب غير سار . غير أنه يثير الاضطراب والدهشة .

وقد كنت أشاهد من آن لآخر ، وان كان ذلك في النادر ، على طول ضواطىء النهر ، حقلاً ممطحاً . مغطىً بعشب طويل كالخلفاء . إلاّ أن الخضرة ليست عامة على السطح المستوي .

كان فرع النيل يتلألأ هنا وهناك على بعد أو كان مجراه موسوماً بشراع أبيض صغير يحمل رباعي عادة ، ومربوطاً بسارية مائلة من القمة .

وقد وعدنا ربان السفينة أن يصل الى القاهرة قبل الساعة الثالثة ، غير أن التيار كان قوياً جداً بسبب هبوط الفيضان . فحال ذلك دون تقدمنا سريعاً . وعلى ذلك مرت الساعة تلو الساعة وفي حوالي الغروب ، ظهرت الاهرامات أخيراً ، وهي قائمة كأشباح هائلة في الأفق الأخر . فامتزجت كل نظرة من نظراتنا إلى أن توارت في الشفق المعتم . ثم غشينا الظلام الحالك ، فلم نرَ أي ضوء ولا سفينة ولا أي شيء نستدل به على اقترابنا من العاصمة التي يبلغ عدد سكانها نحو مائتي ألف نسمة .

وقد عيل صبرنا ولم يكن من السهل تهدئة ثائرة ما اعترانا من القلق بالرغم من أن الموسيقيين السمر بسترهم وسراويلهم البيضاء كانوا يبذلون كل جهد لتحطيم آذاننا وحصر النغماتنا . وبعد انتهاء العزف ، التجأنا الى مأوانا الليلي . فكان صدى صوت الموسيقى وخرير الماء لا يزالان يرددان نغماتنا الوطنية . ثم ساد سكون عميق في جميع أنحاء سطح السفينة . وانسلّ الفلاحون السمر من كل فج إذ فقدتهم سحر الموسيقى الطريفة عندهم .

ظهرت أخيراً القاهرة أمامنا . وعلى الأقل كانت الأنوار تتلألأ على الضواطىء . وقد

حدث أن دارت سفينتنا دورة خطيرة ثم اصطدمت بمركب شراعي ، محمل بالحجارة . فسقط كثير من الرجال في النهر وارتفعت أصوات الصغار المخيفة وصيحات الموت . ولم يقتصر الأمر على تبادل الألفاظ ، بل تبادلوا اللكم . وظهر على العاملين قوم يحملون أوعية من الحديد كالبراميل ، مربوطة الى هواخص وممتلئة خشباً مشتعلاً وقشًّا أو نفاية لتكون بمثابة مصابيح متأججة . ولم نر شيئاً من المركبات الموعودة . وكانت الحير مع ذلك واقفة على أهبة الاستعداد والرجال السمر ، الهمج كقطاع الطرق يلوّحون بعصيهم و يصيحون صيحات مزعجة ، وكل واحد منهم يتحرك على دابته . فركبنا بعد أن أعددنا المعدات الضرورية الخاصة بأمتعتنا . ثم خلفنا خدمنا وترجمانا للبقاء معها وحراستها . وكانت هذه الحيطة ضرورية نظراً الى حالة البلدة . المختلة النظام والشوارع الضيقة والسرقات المتعددة في منتصف الليل . ثم اننا أسرعنا وامتطينا حميرنا وحملنا معنا من الأمتعة ما تمس إليه الحاجة فقط وأطلقنا العنان للحمير . وهكذا اندفع موكبنا نحو المدينة . وكان في المقدمة دليلان ، بيد كل منهما مشعل ككلاب الصيد التي تقتفي الأثر . هذا وقد أخذنا نمر بأزقة ضيقة مظلمة وطرق مسدودة غالباً بالقاذورات المختلفة الأنواع والأحجام .

وقد حدثت كارثة صغيرة ، وهي أن أحد الراكبين كان معه صندوق ثقيل ، داخله نقود ، فوقع على الأرض غير أنه لحسن الحظ نجا من الأذى . هذا هو الحادث الوحيد الذي وقع بنا . وأن السرور الذي يرى في وجوهنا من منظر دخولنا ليلاً ، استغرق نحو نصف ساعة من بدء ركوبنا . وأخيراً وجدنا أنفسنا أمام باب كبير ، هو باب هوتيل أوريتال . وهذا الفندق ، مسكن جميل الموقع جدًّا ، كثير الشبه بالمنازل الانجليزية . فلما فتح الباب ، بحثنا في ذلك المبنى المتسع كله عن نزول أو خدم فلم نجد أحداً . إلاَّ أن وقاحة سائقي الحمير لم تقف عند حدّ حتى بمعونة عصينا . وأخيراً بعد أن بذلنا جهوداً كثيرة ، أفلحنا في إيقاظ رجل زنجي كان غارقاً في النوم . فاذا به يعرف قليلاً من اللغة الايطالية . وفي الحال حلّ مشاكلنا بسوطه الطويل من جلد فرس النهر (كرباج) فانهال به ضرباً ذات اليمين وذات الشمال على النائمين المتمددين على الأرض في كل جانب بلا أي غطاء . أما من جهتنا فرفقنا ، فقد اعترضنا في بادىء الأمر صعوبة عظيمة في اقناع الناس بما يلائمنا . ثم استولينا

على النفقة اللازمة . ومع ذلك كانت العربة التي استقلتنا عليها متعبين ، حسنة جداً . وكانت الستائر ضيقة وبلا ثقوب بحيث حالت دون تطرق الهواء الى داخلها . هذا ولم ندرك مزايا العربات الا أخيراً في اليوم التالي . وكان صاحب الفندق رجلاً فرنسياً صاحب أملاك في الاسكندرية . فقدم لنا اعتذارات كثيرة وأدخلنا بهواً فاخراً وحجرة أكل مؤثثة بالأرائك التركية . وكانت الحوائط مزينة بالنقوش الانجليزية والفرنسية الجميلة ويوجد في البهو بيانو لا أهمية له .

في اليوم التالي ، أشرقت الشمس ففتحت الدرف الفينيقية . ما أبهج هذا المنظر الساحر إن على يسارنا صفاً طويلاً من المنازل الشرقية ، ذات الشرفات المصنوعة من الخشب المخروط النمس (المشربية) بدلاً من النوافذ ويتخلل المنازل أشجار الميموزا والنخل وقد جاوز ارتفاعها جدران الحدائق . وينتهي صف المنازل الطويل والقصور بمنارة طويلة بديعة . وتوجد في الصدر حدة بيان كهذه مدهونة بالدهان الأحمر والأبيض البهيج . وبالوسط أشجار النخل المخططة تخطيطاً طريفاً في الأفق الأزرق ويجاورها الى يميننا هرما الجيزة الهائلان وما يزيدان جلال التلال التي يعوزها جمال المنظر . وتقع الصحراء الى يميننا على الأفق حيث يسهل تمييزها بحوها إذ يطفو عليها بخار كثيف ذو لون رمادي ضارب الى الصفرة . والأرض التي أمامنا جميلة لأنها تشتمل على أشجار الليمون المكسوة بخضرة أربيع باليانعة ، تتخللها حقول الذرة المترعرعة . وفي وسط الصورة بركة صغيرة محاطة بأشجار الليمون . وبالقرب من هذه البركة أعظم الطرق المؤدية الى المدينة ، وهو طريق يخترق ميداناً واسعاً يسمى « الأزبكية » تطل عليه نوافذ فندقنا . هنالك شاهدت لأول مرة بالقرب من أرزقها ، صغار السائقين السمر الوجوه ، يسيرون نحو المدينة ، تتبعها سلسلة من الهجن محملات بطيئة . وكل هجين مربوط بحبل الى الذي أمامه . والنساء يسرن على ظهورهن وسراويلهن الزرقاء ، على رءوسهن أوعية كبيرة وأخرى أصغر منها على أكتفهن المرتفعة وعلى أكتافهن من الجانبين أطفال عرايا غالباً ، ويمشي الأقباط البيض بمعيتهم السود والنوبيون السود بشمائلهم البيضاء الطويلة . والأعراب النحفاء الجسم ، التابلون القذرون والأتراك والأرمن السمان . الفلاح ، الباعة ، جميع هؤلاء يسيرون نحو المدينة . ان

الإنسان لينعش نظره بالقرب من أمام نوافذنا بأوراق أشجار اللبخ والجميز الوافرة ومن المحال وصف السرور الذي نشعر به مرة أخرى لرؤية الأشجار الخضراء التي أُصفنا لحرماننا منها منذ غادرنا النمسا . فهنا الظل وهنا الماء . هنا الفرش النظيفة والفطور الشهي . وبعد أن تناولنا الفطور ، لم يقف بنا حب الاستطلاع عند حد ، فوثبنا على ظهور الحمير التي كانت واقفة على أهبة الاستعداد تحت نوافذنا . وفي الحال انطلقنا فيها غير أن نضيع وقتاً ، يميناً على شط مدينة الخلفاء . حيث يجد السائح عالماً جديداً بالمرة مما يدهش له نظره فلا يدري أين يلقي عينيه أولاً . هل يبصر المساكن البهيجة المتعددة الألوان ، المزينة بالنقوش المنحوتة ؟ أو الجوامع البديعة المتخربة أو الحوانيت لتجار الأغنياء أو هي الجماهير المحتشدة من جميع أمم الشرق ؟ لقد كان من المتعذر علينا اجتياز الزحام الشديد بالقرب منا ، لأن عرض الشارع في العادة من أربع خطوات الى ست لاغير . وقد استطاع ترجماننا المسلح بسوطه الطويل ، المصنوع من جلد فرس النهر ، أن يفسح لنا الطريق بلا مراعاة لأي كلفة ، فأخذ يضرب جميع السائرين المتلكئين ضرباً قوياً . وفي الحال أزال كل عقبة تعترض سبيلنا ، حتى أن الجمال المثقلة بالأحمال اضطرت أن تذعن لهذه المعاملة (١) . حتى [illegible] ما أمكن . وفي العادة كان يرافقنا الكشاري أو [illegible] (يسمون فواحين) وهؤلاء غالباً ما تكون مرافقتهم مضرة للغاية . وهم وان كان مظهرهم جميلاً إلا أنه ليس لوجودهم أقل فائدة . إذ لا يجلم أحد أن اللصوص يسطون عليه . وان ما يرويه السائحون من البيانات بهذا الشأن ، مبالغ فيه كثيراً .

ومنذ اللحظة الأولى التي يخترق فيها الأوربي شوارع القاهرة ، لا يستطيع أن يكف عن التفكير في أنه متى دخل نطاق القاهرة سيُهان ويفتقر ويصاب بالوهن من جراء المجاعة والطاعون . فلا يستميله غير بقايا المجد الغابر . غير أن هذا المجد كان عظيماً ومحاطاً بالنيران بأكمله وبكيان المدينة نفسها بدرجة أن الهمجية الطويلة العهد لم يكن في مقدورها القضاء عليه

(١) لا يستطيع ترجمان أو أي انسان الآن أن يضرب المارة أو يتعدى عليهم ليفسح الطريق بهما كان مسلحاً ومهما كان الطريق مزدحماً . لان الجمهور الآن ليس هو الجمهور في ذلك الزمان . هذا وقد اتسعت الشوارع اتساعاً عظيماً حتى بلغ عرض بعضها ٤٠ متراً أو أكثر (المترجم)

أينما وجه الانسان نظره ، كان الخشب المخروط المتقن الذي صنعت منه المشربيات ، الطلقة الهواء وأبواب القصور المتداعية المتخمة من البرز الجميل والزخارف المنحوتة المنبثة داخل الجوامع القديمة ، كان كل ذلك شاهداً على الذوق السليم والمهارة الفنية في عصر الخلفاء

ومن حسن الحظ أنه فلما تسقط قطرة من المطرين هذه الخرائب . إذ لولا ذلك ، لكان من المحال أن تبقى تلك الآثار الكثيرة من الفنون الجميلة ، محفوظة من القرن الحادي عشر بل من القرن العاشر ، لأنه منذ ذلك العهد المجيد لم يصلح شيء منها بل بالعكس كان كل شيء عاملاً على الحط من جمال الآثار القديمة حتى أصبحت أكواماً من قطع محطمة اتخذت مواد لتشييد كثير من المباني الحديثة[1] :

أتذكر أننا في أول يوم قدمنا فيه القاهرة (٨ اكتوبر) توجهنا إلى القلعة لنتمتع بمشاهدة منظر المدينة العام . فهناك تمتد العاصمة الى السهل المتسع السفلي الذي يكسوه اللون الرمادي القاتم . وان منظر الضواحي التي ينبت منازلها من الطين وحده في غاية الكآبة . ويليها أيضاً أكوام القمامة والانقاض المنتثرة . وقد دعت الضرورة إلى شق الطرق خلالها . وترى في هذه الضواحي بعض الجوامع والمآذن العتيقة ، ظاهرة بشكل محزن ، شبيه بالموت . وهي أمتن من كل ما حولها . والآن ويا للاسف الا يقيم تحتها غير الكلاب ولا يعلوها غير اليمام والغربان .

لما أجلنا النظر حول محيط هذه الانقاض الكثيرة ، استطعنا أن نكون فكرة عن اتساع حجم المدينة القديمة . التي كان عدد سكانها فيما مضى ٨٠٠ر٠٠٠ نسمة . فأصبحوا لا يتجاوزون ٢٠٠ر٠٠٠ [2]

يوجد أسفل القلعة مباشرة ، وهي التي ترتكز على أساس صلب من حجر الجير ، عدد من المباني العويلة والوضيعة ، الرمادية اللون ، ذات سطوح مستوية ، مغطاة بروث الجمال بدلاً من الأسفلت وليس لحيطانها نوافذ . ومنظرها كملف الورق المقوى وارتفاعها

(١) أنشئت بعد ذلك المصلحة دار الآثار العربية وتألفت لجنة حفظ الآثار التي قامت باصلاح وترميم المباني الأثرية وعملت على المحافظة على بعض ما تبقى منها (المترجم)

(٢) يبلغ عدد سكان القاهرة الآن نحو ١٠٠ر٠٠٠ر٢ (المترجم)

من ثمانية أقدام الى عشرة . يشغل كل منها سطحاً مساحته عشرون قدماً مربعاً . وهذه المباني هي ثكنات مؤقتة يقطنها الجنود مع زوجاتهم وأطفالهم في زحام شديد !

ان اللون الرمادي هو اللون السائد في المدينة بأجمعها . ونرى هنا وهناك مآذن آية من آيات المن المعماري ملونة باللون الأحمر والأبيض تسر الناظرين . أو نرى قبة جامع قديم تضيء على طول العصر الزخرفي المنحوت . ثم ألقينا نظرة طويلة ، بكل سرور على الأهرامات الثلاثة الاشراق في ضوء الشمس بين السديم الذهبي المشرق على الصحراء . ويوجد بينها وبين المدينة خط بهيج من الخضرة ، تلك أشجار باسقة ، وافرة الأوراق . وحقول متناثرة من القمح أو الذرة . ثم شاهدنا عن بعد مصدر جميع هذه البركات — النيل الذي يتألق كبحيرة عظيمة ، وسط الأشجار . وإلى يسارنا ، أجمة صغيرة من أشجار النخل ، تكون حاشيتها تخوم الصحراء . وإلى يميننا تمتد جبال المقطم الكلسية كالجدار الأبيض المستقيم .

ان محيط القاهرة الجديدة ، لا يزال عظيماً جداً بالنسبة الى عدد السكان . فهي تبلغ ضعفي أو ثلاثة أضعاف مساحة برلين تقريباً . ويدخل في نطاق هذه المساحة طبعاً أكوام الخرائب الكبيرة . وكذا الطرق في بعض الأحياء التي تكاد تكون خالية من السكان والتي يشمل أعظم جزء منها منازل متهدمة .

بعد أن نزلنا من أعلى قمة في التلعة ، بدأنا بزيارة الجامع الذي أمر بتشييده الباشا (محمد علي باشا) ولم يتم بناؤه . وهو بناء ضخم ، فسيح جداً ، إلا أنه مزيج من النمط المغربي والنمط الحديث[1] ويرجع جماله بنوع خاص الى عمده المتخذة من الرخام الشرقي النفيس وقد أقيم منها خمسون عموداً . وان محاريب الجامع وأفاريزه الصفراء وحواشيه التي من الفسيفساء هي من أعلى أنواع الحجارة في مصر . ومن الغريب أن الباشا الذي يعنى بدأب كثير من المباني ، لم يفكر في إصلاح أحد الجوامع القديمة ذات الجمال المنقطع النظير[2]

---

(١) بنى جامع محمد علي باشا على نمط جوامع القسطنطينية (المترجم)

(٢) كان لمحمد علي باشا عذر في ترك تلك الجوامع الاثرية المتهدمة على حالها لان موارد مصر في عهده لم تكن تحول له الانفاق على اصلاحها . وقد أصلح ورمم عدد عظيم منها بعد بفضل توفر المال وجهود لجنة حفظ الآثار (المترجم)

ثم إننا حاولنا أن نحصل على إذن لمعاهدة جزء من داخل قصر الباشا على الأقل . فحمل ضابط قديم على ترخيص لنا بالدخول مع ان الترخيص كان قد رفض من قبل . وقد استولت علينا الدهشة وشعرنا بالخيبة عندما دخلنا حجرات الحاشية التي تحيط بالحديقة ، إذ وجدنا أنفسنا في حجرة الانتظار فاذا هي مفروشة بحصير وجدرانها مطلية بالجير الرمادي الخشن والخطوط الحمراء . ثم إن غرف الاستقبال تعسا . لا تفضلها ، فهي مؤثثة بالأرائك المتسخة والمهوفة وتستند الى حوائط ينم شكلها عن انها كانت بيضاء فيما مضى . وبالساحة الأمامية ، فصيلة من جنود الرديف المصريين . ففتش فريقنا الأجنبي المحب للاستطلاع ، أمتعتهم ومعداتهم تفتيشاً دقيقاً . والجندي المصري ليس قبيح المنظر . وقد يتبادر للذهن عند رؤيته انه يماثل معاملة حسنة إذا لم نكن نعلم أن الآباء هنا غالباً ما يفقأون عين أحد أبنائهم أو يقطعون الأصبع السبابة لليد اليسرى لئلا يكون فريسة لقسوة معاملة الباشا الذين يعملون في الخدمة العسكرية [1]

يرتدي الجنود المشاة سترة فضفاضة زرقاء وصديريات بيضاء وسراويل حمراء وأطقمة بيضاء تبلغ الكعب وأحذية حمراً على أقدامهم العارية . وغطاء الرأس طاقية حمراء تشبه غطاء الرأس عند اليونان . ويسمى في مصر بالطربوش .

يوجد بأسفل القلعة ، بئر غريبة جداً ، هي البئر الوحيدة في جميع أنحاء مصر لأن الأهالي على العموم يشربون ماء النيل . ويقال إنها بئر عميقة ، تعرف ببئر يوسف . لا يتجاوز عمقها عن ٣٠٠ قدم . محفورة في صخرة من حجر الجير . ويوجد حول البئر نفسها سلالم ملتفة مبنية بناء بديعاً . والجدار الداخلي ، نوافذ تمد ذلك العمق الساحق بشيء من النور .

وبالقرب من سفح القلعة ، بناء جاني صغير لاصق بها ، هو معرض الوحوش الذي أنشأه محمد علي باشا ويه بعض الأسد والضباع ، مربوطة إلى الحوائط : بسلاسل قوية هائلة بالقرب من أوكارها القذرة . غير ان الحيوان الذي يستحق الذكر ، هو النمر .

---

(١) لا يرجع السبب في ذلك إلى سوء المعاملة كما تصور المؤلف بل الى قلة المرتب وحرمان أسرة الجندي من الانتفاع بمنفعة طويلة (المترجم)

وقد زرنا عند عودتنا سوقاً . وان جميع طرق الأسواق متشابهة من حيث أن اتساعها لا يزيد عن أربع أو خمس خطوات . وهي غير مرصوفة ومغطاة بسقيفة تمتد من جانبي أدوار المنازل العليا . ويبدو منظرها مظلماً .

والتجار يبيعون البضائع الحريرية . وقليل منها مصنوع في مصر . فأغلبها يرد من القسطنطينية . وهناك بعض الخياطين يبيعون ملابس جاهزة . وترى كثيراً من الدلالين يحملون بأيديهم أصلحة فضية محلاة بالذهب ، والشيلان والقلايين والشبك . انهم يجلسون القرفصاء وسط الزحام وأولادهم القذرون العصار يمصون البرتقال الحلو والرمان . وان ملابس هؤلاء الأطفال في العادة عبارة عن قميص من القطن الأزرق ، ذات أكمام واسعة ، مربوطة بحبل أحمر من الصوف ، ملقى الى العنق ومتقاطع من الخلف . وقلما يلبس الأولاد العمائم . فهم يكتفون غالباً بالطرابيش . أما التجار الذين يبيعون أنواع الحرير والأقمشة (وتسمى المباسم) فهم أتراك في الغالب نظاف ، يرتدون ملابس تركية جميلة . ويرتدي العربي الغني (يريد المصري) قميصاً أبيض وسراويل بيضاء ويتمنطق بحزام عريض من الحرير . أما سائر ملابسه فمؤلفة من عترة من نسيج الحرير أو القطن ، ذات كمين مفتوحين أو حلباب واسع يصل الى الكعبين ، وخفين أصفرين يلبسان جلده ، وعليهما خفان أحمران .

ترى نساء الفلاحين هنا في جموع من أطمار العرايا الذين يعلوهم الهوام يبعن نوعاً من الخضر المعروضة أو العجين ، نصف الخبوز أو العيش الأبيض والخيار والبرتقال الحلو . وملابسهن نوع من الرداء الأزرق الطويل ، ينتهي بنطاء يستر الرأس . والبرقع الأسود مشدود الى قصبة الأنف ومربوط بشبك من نحاس مؤلف من ثلاثة أزرار صغيرة منظومة في سلك في طرف هذا الرداء الطويل المتدلي على الجبهة . ومع ذلك فكثيرات منهن حتى الفتيات قد أبطلن استعمال هذا البرقع المتعب الكريه . لذلك يستبدلنه بامساك طرف الرداء الطويل بين أسنانهن ويرمقن الأجنبي خلسة . وقد انتشرت بينهن عادة تزجيج العيون بالكحل الأزرق القاتم وصبغ الأظافر بالحناء الحمراء حتى بين أحط الطبقات . وقد أكسبتهن عادة حمل الأثقال على رؤوسهن باستمرار ، رشاقة وتموجاً في المشي . فهن بهذا يمشين أكمل الواسعة الطويلة من التدلي على أيديهن بما ألفنه من رفعها على رؤوسهن حتى صارت ميلتهن غريبة وجميع

حركاتهنّ متوازنة ولا يلبسنَ أحزمة أبداً . لهذا تجد أنحنهنّ ذات شكل حسن ومظهر ممتلئ وهنّ مع حرصهنّ على اخفاء وجوههنّ لا يرتبنَ في التكشف ، لأنا نرى إتساعاً في فتحة الرداء من العنق . والسراويل جزء ضروري ، لكنهنّ حفاة لا يستعملنَ الأحذية اذ أنها خاصة بنساء الطبقة الراقية اللاتي يظهرنَ في الشوارع عادةً متطيات الحمير ووراءهنّ الخدم . وملابسهنّ بيضاء ، غالباً بدلاً من الملابس الزرقاء ، وعلى رءوسهنّ برانس صغيرة من حرير أسود تتدلى على الأكتاف والظهر ، تباين بقية الملابس مباينة شديدة . ويجلسنَ على سروج الرجال من الجانبين بحيث يكون الركاب عالياً جداً فيعتليه بغاية الصعوبة . ومن مظاهر الترف العظيم ، الخيول المطهمة ، وغطاء سروجها مصنوعة من قطيفة أرجوانية اللون مطرزة بالذهب تطريزاً غنياً ومثبت عليها رقائق من ذهب يتدلى منها كثير من الأهداب المزركشة . انجمع الذين لهم أي اعتبار ، هم الأتراك وأغلبهم ينتمون الى الجيش ويرتدون ملابس تركية النمط ، عدا العمائم فانها قلما ترى بشكلها الأصلي الغالي . وهم يلبسون سراويل تستر الركبة ونوعاً من الكلزا أو غطاء الساق وسترة مزركشة ذات لون أزرق أو أحمر في الغالب ومنطقة حريرية عريضة فيها عدّة غدّارات وسيف قصير داخل غمد فضي . هذا وليس الطربوش عام الشيوع . ومن المناظر المألوفة بين الجمهور المرح المختلط ، المختلف الأزياء ، القبطي بوجهه الأصفر وملامحه الدالة على الملق . أما ملابسه وعمامته ، فسوداء . والمحامون يلبسون عمائم سوداء أكبر (١) وكذا مفسرو القرآن ، أما الأشراف ، فيلبسون عمائم خضراء كبيرة ، غير أني لم أرهم بالفعل إلاّ في المساجد .

في ثاني يوم من قدومنا القاهرة (٩ اكتوبر) ، ذهبنا فتنزه إلى ما يسمى مقابر الخلفاء ، فسرنا الى أقرب باب لتلال المقطم لزيارة أول مكان ، جامع قايتباي ، المشيد في القرن الخامس عشر (٢) وهو بناء كبير ، نصفه متهدم ، يشبه المعبد ، وتعلوه قبة ومنارة لطيفة ، مستدقة الرأس . وقد سقط طلاء سقف الجامع وعري الطلاء الجميل . أما الرسوم الغريبة التي تغطي جانب الحوائط وتحيط بالنوافذ ، فغير ظاهرة إلاّ في بعض الجهات مصادفة ، وأما قضبان النوافذ الحجرية المصنوعة من البرنز الصب ، فلا تزال باقية بحالة

(١) بني جامع قايتباي سنة ١٤٧٠ م (المترجم)

جيدة ، وكذا زخارف الأبواب البرنزية . وليس هذا مما يدعو الى الدهشة بالنسبة الى جفاف الجو . ومع ذلك فقد طرأ تغيير عظيم على حجارة الأرض . فلم يبق منها غير آثار قليلة من الفسيفساء في الافاريز وهي من رخام أسفر وأبيض . أما مقبرة فيلباي نفسها فهي تحت القبة فيها قطعة قديمة من حجر الصوان تمثل آثار قدم محمد (صلى الله عليه وسلم) وضريح السلطان ، داخل شبكة من الخشب المخروط . وقد كان فيما مضى موشّى بالذهب ، وثقوبها ضيقة جداً بحيث لا يسهل رؤية المصحف الموضوع على القبر . ولا تتجلى عظمة نقوش القبة المنحوتة إلاّ بأجزاء منعزلة في جهات مختلفة . ومع هذا يمكن أن يقال أن البناء بوجه عام يستطاع إصلاحه بنهاية السهولة.

ثم أننا ركبنا واجتزنا ساحة فقراء من الخرائب ، وهي عبارة عن تلال يبلغ ارتفاعها من ثلاثين الى خمسين قدماً مكونة من قطع من جرار وأنقاض مبان قديمة العهد ، منثورة أملتنا ، يتضح منها إتساع مدينة الخلفاء . وقد وصلنا سريعاً الى المدافن وبعضها محاط بالجدران . وتدل الجوامع القديمة والقباب على مقابر الخلفاء الموجودة في كل مكان . وكثير منها مغطى بالرسوم الجيلة المنحوتة في حجر الكلس نحتاً بديعاً كأن نسيجاً مطرّزاً تطريزاً دقيقاً قد ألقي عليها . فدخلنا أتم هذه الجوامع الأثرية أعني جامع البرقوق الذي يرجع عهد نشأته الى القرن الرابع عشر [1] وهناك يخيم السكون بدرجة عظيمة لبعد الجامع عن المدينة. فلا تسمع الأصوات الحية إلاّ من الأطفال الصغار عند الأسوار وهم من الأسر الفقيرة الذين يقطنون في الحجرات الجانبية المجاورة .

في الجامع ساحة مكشوفة في منتصفها ناقورة تظلها الأشجار وحولها أروقة مقنطرة ، تحملها أعمدة رفيعة مزينة برسوم عربية متنوعة وقد صارت الشبابيك الخشبية رمادية اللون لطول عهدها . غير أن آثارها تدل على أنها كانت فيما مضى موشّاة بالذهب ، مما أثار إعجابنا بجمالها . وهذا الجامع لائق له . وإننا اذا أدرجنا الجوامع المتهدمة في الاحصاء ، بلغ عددها مائتين على الأقل ، وسقيفة المدخل تعلوها قبة مرتفعة ، هي في المادة أنفس جزء فيه وتفصل قبر بانيه . ويشمل الجامع الأصلي ، بساحات فسيحة مكشوفة ، مجاورة لمعبد فاخرة .

(١) تم انشاء جامع السلطان برنوق سنة ٨١٠ هـ (المترجم)

وفي الوسط ، فضاء واسع مربع الشكل مرصوف بالرخام ، يحيط به جدران أو عمد طابية مزينة . والعقد العالي الوحيد ، هو قبة السماء المطلقة . وتقام الصلاة في هذه الساحة الداخلية وتحت العمد . ما أجمل هذه البقعة لعبادة الله ! إنها في الحقيقة لأشد مهابة وجلالاً من كثير من الكنائس القوطية حيث تؤدى العبادة في ظلام حالك . فهنا تبدو قبة السماء الرائعة نفسها بزرقتها الدائمة الطاهرة كأنها قبة هائلة مستقرة على تلك الجدران المرتفعة المبنية من الحجر المنحوت وفي وسط ذلك المربع المكشوف السالف الذكر ، نافورة مشيدة من رخام ويحاط بالحوض بعض أشجار النخل . هذا الحوض يشرب منه المصلون ويتوضأون . والحصر المصنوعة من سعف النخل مفروشة تحت صف الأعمدة . وهي في الغالب ستة صفوف أو سبعة صفوف من الرخام النفيس . وعلى هذا الجانب من البناء المتجه نحو مكة ، يوجد المحراب داخل الحائط وهو بناء نفيس كتقدس الأقداس . وكل مسلم يخلع نعليه عند دخول المسجد . ولما كنا لا نستطيع خلع نعالنا بالرغم من رغبتنا في اتباع هذه العادة ، فقد كان ذلك مثاراً للاستغراب ، لا سيما في المساجد التي يكثر التردد اليها . وقد نجونا غير مرة من التعدي علينا بفضل همة القوّاس .

كان جامع المؤيد أقرب جامع لقتدقنا على الجهة المقابلة للشارع المغطى [1] إن مدخله عظيم يشبه كهفاً هائلاً مطعماً ذات مثات من الكرات الصغيرة في السقيفة الفخمة التي يبلغ ارتفاعها ستين قدماً .

وهناك ثريا ضخمة من برنز على شكل سفينة معلقة من القبة العظيمة بسلسلتين . أما السلسلة الثالثة فمكسورة واليمام معشش فيها . والثريا مغطاة في الأصل بخشب مخروط دقيق لا تزال بعض قطعه باقية . وتدل آثارها على أنها كانت موّشحة بالذهب . أما الساحة المكشوفة ونافورتها التي في الوسط ، فانهما في غاية الجمال . وقد رصفت الأرض بالرخام . ولم تنثرها أقدام الناس بأحذيتهم الخشنة فبقيت حافظة لنعائها حتى لقد اضطررنا الى لبس الاخفاف على أحذيتنا الأوربية .

إن جامع طولون متهدم الآن . وهو بناء كبير وقد خلف في نفوسنا أثراً عظيماً .

(١) شارع الخيمة والسروجية وهو مصروف الى (الأقمر المنير)

وأعمدته التي تحيط بالساحة الفسيحة المكشوفة بالوسط يبلغ ارتفاعها أربعين قدماً . ترتكز على عقود مدببة جميلة التناسب . وقد تهدمت الأجزاء الحديثة البناء في عدة جهات ، فظهر البناء الأصلي الفاخر مجلاء ولا يزال بعض الأجزاء الخشبية المموّهة بالذهب التي تكسو الجدران حافظة لشكلها مع أن الجامع مبني في القرن التاسع . ويوجد قليل من الألواح محفورة في الجدران ، ذات نقوش كوفية بالقرب من المدخل الأصلي .

ثم أننا ألفينا في طريقنا جامعاً ثالثاً ، هو الجامع المعروف بالأزهر الذي يفخر بقدميته وداخل صياحه ، ساحة من الأرض في غاية السعة ، بها أبنية متفصلة : بيت الفقراء ومأوى الحجاج ومكتبة وكلية شهيرة لتلقي العلم والقاء المحاضرات بواسطة الأساتذة ، وحجر للاستحمام ، وفيها يؤدي الطلاّب عملهم . كل هذه الأقسام متصلة بذلك البناء العظيم ذي الأعمدة الكثيرة . وكان بالداخل جمهور من المؤمنين ، بعضهم جالس بانحناء على الأرض يتلو القرآن وقد أخذ يهز الجزء العلوي من جسمه الى أعلى وإلى أسفل وهو يقرأ والبعض الآخر يشيعنا بالهمهمة والطقطقة ويشير الى أقدامنا كي نخلع أحذيتنا الكريهة . وفي هذه الأثناء ، دافع عنا قوامنا عن الاعتداء باستعمال السوط في كل جهة . وكان خدام الجامع بملابسهم السوداء الطويلة وقمصانهم الصفراء الداخلية يصوّبون بعض الضربات لحمايتنا .

في اليوم الرابع (١١ كتوبر) زرنا أعظم جامع وهو جامع السلطان حسن القائم في مكان فسيح . وكان في ذلك الوقت أحد الحواة يقوم بألعاب مدهشة تخلب عقول المتفرجين الكثيرين من مختلف الأعمار والطبقات ، الملتفين حوله . وكان أهم عمل شاهدناه من أعمال الشعوذة وخفة اليد ، هو ضرب أحد النظارة بسوط مخيف ضرباً شديداً حول رأسه العاري . وكان هذا الرجل المهرّج ، طويل القامة ، هزيل الجسم ، أسمر اللون ، وهذه لعبة خطرة . وكان هذا الرجل العاري الرأس يلوي نفسه بمهارة لينفادي كل ضربة ليّنا ملائماً بحيث أن السوط لم يمسه . هذا والمتفرجون يبدون سرورهم وإعجابهم بالاهتزاز ذات اليمين وذات الشمال ويجلسون في المقاهي أو على الأقل في أماكن بيع القهوة التي تشمل مناديق صغيرة كبيوت الدجاج ، مصنوعة من سعف النخل المجدول حيث يجلس فيها الزوّار لشرب القهوة من فناجين صغيرة ويدخنون النارجيلة . ثم يوجد هناك أيضاً

« الشربات »[1] موضوعاً على إحدى هذه المنصات ، أي الشراب من أي نوع ، كشراب التوت أو المشمش أو البرقوق ، ممزوجاً بالماء . ولا شيء يضارع عندهم شراب البنفسج من بين هذه الأشربة . أما أنا فلا أميل الى الشراب الجزاري القوي لأني أرتاب فيه .

يشغل الجامع العظيم جانباً كاملاً من الساحة ، وهو كأغلب الجوامع ، مغطى بمخاطيط حمراء وبيضاء (لا أثر لهذه الخطوط الآن) غير ان لون الجدران هذا لا يناسب مطلقاً جمال زخارف النوافذ . فلا بد أن ذلك قد نشأ في عهد انحطاط الفنون الجميلة في هذه الأيام الأخيرة لذلك صارت الجدران عديمة الصلة بالبناء الأصلي . وبروج البناء من البرز الصب منتشر على التوآت والزخارف الصغيرة التي لا تحسن للشكل الملتف غير المنتظم الذي يسهل تتبعه .

والسقيفة الداخلية أيضاً بأقواسها المرتفعة والأبواب عند المدخل ، مزينة بكثير من الفجوات الصغيرة الدقيقة . الصنع ، المشابهة لرواشم المقاور الرائعة (مثال الكتبيت) التي لا يمل الانسان فحصها أبداً . ان ارتفاع الجدران مرصود قدماً الى السقف . وهي كذلك مملوءة من هذه الرواشم المدلاة من هذه الفجوات مع أن صفًّا منها يؤلف كرنيشاً تحتها ويؤدي المدخل الأصلي الى ضريح السلطان حسن وهو قبة عظيمة شاهقة . وأعلاها مزين بتلك النقوش المنحوتة الغريبة التي لا يسعني إلاّ أن أسميها بالفجوات المغطاة بالرواشم ، وعليها آثار كثيرة من التذهيب . والنوافذ نصف المكسورة هي من أبدع أنواع النقوش العربية ومملوءة بأنواع الزجاج الملون ، المختلف الألوان غير أنها مرتفعة جداً فلا يتنفذ منها إلاّ أشعة ضئيلة إلى الأسفل . والأرض مرصوفة بالموزيكو البديع المؤلف من البرفيري وحجر الدم والرخام . وفي الوسط ، مقابل شرق الجدار الجانبي للبناء ، حجر الضريح ، وهو حجر كبير بسيط مختف وراء شباك حديدي مزين بأنواع النقوش ، بعضها من حديد وبعضها من خشب مذهب وعليه آثار التذهيب القديم . وعلى حجر الضريح ، القرآن العظيم مخطوط بحروف حمراء وحروف ذهبية ، قيل أنه مكتوب بخط ابن الحسن . وجميع ذلك موضوع في نفس البقعة عند أول بناء الجامع منذ خمسمائة عام تقريباً . وقد انقضى جيل بعد جيل على تشييد ذلك الجامع العجيب الذي أنفقت عليه مبالغ طائلة إلاّ انه لم يأت أحد

(١) كلمة تركية بمعنى شراب عامة الاستعمال في مصر من العهد القديم (المترجم)

يتقن الفن ويملك من المال ما يستطيع به اصلاح ذلك البناء من التلف على مرّ الأيام . غير أن المهابة الدينية حفظته من أن يصاب بضرر أو أن تمس يده الانتقام هذه الأوازات الأثرية . ثم ان اعتدال المناخ كان من العوامل التي حفظت النقوش على الحجر والحديد ، ولو كان هذا الجامع في جوّ أقل لطفاً كما هو الحال عندنا ، لحوّلته التقلبات الجوية إلى ركام من الأنقاض والخرائب .

وكم من مرة كنت أتخيّل « ألف ليلة وليلة » عند ما كنت أخطو في هذه القاعات المرتفعة العجيبة ، المهيبة بمساطبها ، الساكنة والهادئة في عظمتها التي مع مضي الأجيال العديدة لم تطأها قدم . وكثيراً ما كنت أتذكر قصراً « أبا الحسن ، صاحب الحمال وعلي بابا الكفيف البصر » . وكنت أرى عند ما أمير في الشوارع ، الصناع المجدين جالسين في حوانيتهم الصغيرة وهي عبارة عن مصاطب مجوّفة داخل الجدران ، تتجه فتحاتها نحو الشوارع فتؤلف باباً ونافذة في آن واحد . والجزء الأمامي من كل جانب ، مصنوع من الخشب ، يجلس عليه المار لينجز عملاً أو يشتري ما يحب من البضائع . ثم يرى في الظلام الدامس قاعداً القرفصاء ، مستريحاً بسترته الحريرية النظيفة ، وعمامته البيضاء . أو تراه يطرقه فتسمع صوتها في الهواء أو يدخن بنرجيلته كدأب كل تاجر في السوق .

في نفس اليوم الذي ألقينا فيه نظرة عامة على جميع المساجد العظيمة تشرفنا بالمثول بين يدي الباشا . ففي الساعة الثامنة ... قدمت مركبة فخمة تتلألأ بالذهب لتقلنا الى القصر . وجرى أمامنا عبدان وأحاط بالمركبة فرسان بملابس عسكرية وسارت سريعاً مجتازة شوارع المدينة الملتوية الضيقة .

لما وصلنا القصر ، بادرنا بالنزول في الحال ورافقنا رئيس التشريفات الى الدرج . فدخلنا بهواً كبيراً إلاّ انه ليس فخماً إذ لا يحتوي إلاّ على أرائك حمراء . وفي احدى أنحاء الحجرة شمعدانان ارتفاعهما ستة أقدام وبينهما شمعة ، أضيئت عند دخول الأمير . وكان مترجم الباشا الذي يدعى خسرو بك رجلاً قصيراً ، بدين ، ذا عينين مستديرتين نافذتين . فقدّمنا إلى الباشا ، فرتبنا بلا صعوبة على مقاعد عالية وكانت مهامزنا عائقاً مكدراً . وقدّم قائد القوات للأمير أولاً ، فلبرنا طويلاً مرصعاً بالأحجار الكريمة الثمينة . ثم قدّم لكل

منا غليوناً مثله (وصواني) فضية عليها طاس الشبك فدخنت بكل وقار وكنت في الوقت نفسه أجهد كل أعصابي كي أتابع ترجمة الحديث فلم يكن ذلك أمراً هيناً إذ كان مركزي في الجلوس بصياً . ثم قُدِّمت الينا القهوة في فناجين صغيرة . والقهوة كانت حالكة السواد وساخنة جداً والعادة تقضي بضرورة شرب الفنجان دفعة واحدة [1] فلم أستطع ذلك بل أعطيت الفنجان للضابط الذي كان في الانتظار بعد أن تناولت جرعة واحدة فقط . فتناول الفنجان وغطاه بيديه كما لو كان يحاول أن يمسك جشرة فيها [2]

في يوم ١٣ اكتوبر ، تسلقنا أهرامات الجيزة . وهذه المناسبة أقول ان جهة وضيعة كهذه ، واقعة على مسافة بعيدة من الاهرامات ، لا ينبغي أن تسمى باسمها . وقد زوّدنا الباشا بالخيول القوية الكريمة ، فحدونا الى أن وصلنا النيل ثم تقدمنا الى الجيزة حيث بدأنا بزيارة أفران التفريخ . هنالك غرفتان منخفضتان مبنيتان بالطين ، ترتفعان إلى جدران المساكن . والمتنعات على ارتفاع قدم واحد من الأرض وبباع ارتفاع قطرها قدمين وهنالك ست منها على كل جانب من السكن ، مملوءة تراباً ومواداً على ارتفاع نصف قدم تقريباً وبأسفلها أفران للتسخين البيض من ٥٠٠ إلى ٦٠٠ بيضة مصرورة ويزحف رجل برميها فيقلبها بكل عناية . ودرجة حرارة الغرفة العادية ٥ — ٣١ ترمومتراً (١٠٣ فهرنهيت) . وبعد مضي أحد عشر يوماً يفقس البيض لكن لا يفرخ إلا ثلث البيض أو أقل من الثلث . وتجري عملية التفريخ في خلال ثلاثة أشهر أو أربعة على الأكثر من السنة ابتداء من شهر يناير إلى ابريل . وهذا راجع على الأرجح إلى صعوبة الحصول على غذاء للفراريج [3]

كان طريقنا من الجيزة بين أشجار النخل البهيجة وكان محصولها قد جني توّاً . ثم ان مساكن الفلاحين العادية تحت أشجار النخل وهم لا يتعطفون لانفسهم الا كواخ المبنية بالطين إلا عند الضرورة والشدة ويتحوّل أطفالهم حول المستنقعات وبقايا الفيضان طول النهار وهم يحرثون الأرض التي تحت النخل بمحراث في غاية البساطة ، ومع ذلك فإن الحقول حسنة

---

(١) لا نعلم عادة كهذه في شرب القهوة في مصر (المترجم)

(٢) لم يصف المؤلف محمد علي أثناء هذه المقابلة ولا ما دار بينه وبين الامير في حديث وانا نشعر بهذه الفراغ (المترجم)

(٣) لا وجود لهذه الافران في الجيزة الآن (المترجم)

الزراعة كما يبدو لنا . لقد كان الجزء الأعظم من السهل لا يزال مغموراً بالماء ولذلك لم نستطع الاقتراب من الاهرامات إلاّ بعد أن دورنا دورة عظيمة على طول جسر ضيق . وأخيراً بلغنا الصحراء ، حيث اجتزنا السهل على ظهور الخيول التي أرسلها لنا الباشا . فعدونا بأقصى سرعة نحو الاهرامات . وأغلب سكان القرى المجاورة من البدو ، فاندفعوا لاستقبالنا وهم يصيحون صيحات عالية . ورأيت من بينهم زنجيًّا من أهالي غربي أفريقا ، غليظ الشفتين أفطس الأنف . فاختار كل منا رجالاً أدلاء منهم أو هم الذين اختاروهم . وعلى ذلك تقدمنا نحو الاهرامات

وشاهدنا أولاً أبا الهول الفظيم المنظر . ومما يؤسف له ، ان رمل الصحراء الجيري يهدد على الدوام بدفنه . وان الصخرة الكلسية التي نُحت منها ، رقيقة وسهلة التفتت حتى أن أنفه قد تلاشى وتآكل صدره وكثرت فيه الثقوب .

إن الهرم الذي بدأنا بزيارته هو الهرم الأكبر لخوفو ، وعلى جداره الداخلي بالقرب من أعلى مدخل حجرة الملك ، الكتابة الهيروغليفية التي حفرها الأستاذ ليبس . ونزلنا الممر الأول الذي يبلغ طول مدخله عُشر ارتفاع الهرم . وهنا ينتهي انتظام الدرج الخارجي الحجري . أما الحجارة فرق الفتحة ، فهي ضخمة أو هي كتل على شكل إسفين ، كل واحدة منها تقابل الأخرى . وقد نزلنا ومعنا عشرون شمعة ويساعد كل منا رجل . وتحشمنا مشقة في طرد بقية الجماعة . لم يتم ذلك الاّ بعد جلبة وضجيج ومع هذا حاول رجل أسود زائد عن الحاجة أن يندس وسطنا . وكان نزولنا الممر المنحدر بالانزلاق لا بالمشي وقد اضطررنا أن نحمي أنفسنا . وقد ساعدنا الأدلاء بقدر طاقتهم وحرصوا كل الحرص على منعنا من السقوط حتى وصلنا الى حجرة الملك ، وهي حجرة فسيحة مظلمة لا ينفذ منها أي شعاع من النور . ومكونة من كتل من حجر الجرانيت وليس فيها غير تابوت من الجرانيت بلا غطاء . ثم توجد حجرة أخرى تسمى حجرة الملكة ، بلغناها بالمشقة نفسها . وليس بها الاّ الوطاويط . فرجف أحد خدامنا الى أحد الممرات الهوائية التي لا تتجاوز أكثر من قدم مربع ، ليحك بعضها . فساعده الحظ إذ أمسك قليلاً منها . الوطواط ذو ذنب طويل وأذنين ملتصقتان فوق الأنف . وقد كان ارتقاؤنا عند عودتنا وتسلقنا الممر الخارجي

الضيق ، أشد سهولة من نزولنا . وقد سررنا كثيراً لما تم لنا ذلك حيث لاح لنا ضوء النهار مرة أخرى . وبعد أن استرحنا هنيهة ، صعدنا سريعاً على جزء متهدم في الهرم الى القمة وهي ساحة متسعة ، مساحتها ثلاثون قدماً مربعاً . غير أننا وجدنا الحرارة بالغة أشدها . فاكتفينا ونحن على القمة بافراغ قارورة من الشمبانيا وشربناها في صحة ملكنا .

وقد تطوع أحد مرشدينا بالقيام بعمل باهر لا بنزول الهرم الأكبر الذي تسلقناه في أكثر من ربع ساعة ، بل بتسلق الهرم الثاني الذي لا يزال مغطًّى من قرب قمته بغلاف بحيث لا يستطيع أي أوربي أن يصعده . وقبل انقضاء خمس دقائق ، صحنا صوته وهو ينادينا من قمة الهرم الثاني . ثم بعد عدة دقائق ، كان معنا على قمة الهرم الأول من غير أن يلهث . يبلغ ارتفاع هذين الهرمين نحو ٤٥٠ قدماً تقريباً . أما ارتفاع الهرم الثالث الذي يقع على مسافة قليلة منهما ، فهو أقل بكثير . وبعد أن مكثنا مدة على القمة ، نزلنا الى السهل مجتازين وجه ذلك السهل العظيم . هذا الأثر الذي بقي طول هذه القرون الماضية سرًّا غامضاً . وكانت خيولنا واقفة في انتظارنا . فعزمنا أن نسلك طريقاً آخر . وما لبثنا أن وقفنا أمام أخدود حفر للري من النيل الذي يسير الطريق . فخطونا ووصلنا لحسن الحظ سالمين الى الجهة المقابلة . مع أن الماء بلغ حتى سروجنا . وكانت الخيل تجفل من الكلاب التي كانت تسبح بالقرب منا . ثم واصلنا سيرنا مستقلين تماماً . وقد شاهدنا كثيراً من أسراب الطيور وأنواعاً شتى من طيور الصيد ، عدا زُمَج الماء وأبي قردان والحداء ، مما حفزنا على الاقبال على مسرات الرياضة . ومع هذا لم نصد الا بومة بيضاء . ثم عبرنا خرائب قنطرة جميلة من عهد ملوك العرب القدماء . وعند المساء ألفينا أنفسنا عند الجيزة بعد أن اجتزنا حقول الذرة الناضرة الخضراء ، وبعدئذ وصلنا القاهرة

في يوم ١٥ اكتوبر ، في أشد حرارة الشمس الخانقة ، رحلنا الى سقارة ، فعبرنا النيل عند مصر القديمة . ومن ثمّ سرنا على الشاطئ الغربي للنهر لمسافة خمسة فراسخ ، مارين بأشجار النخيل . وشاهدنا في كل مكان الأهالي المسرورين الشباع وان كانوا في غاية القذارة . وكان بعضهم يشتغل باعداد النيلة وهم يغنون أثناء العمل في أوعية من الفخار وأخيراً وصلنا « ميت رهينة » بجوار منيس القديمة التي تمتاز من سائر السهل بكثرة أكوام

الخرائب . وهي أشبه بالجبل في تكوينها من أجزاء المباني القديمة . هنالك لا ترى عموداً ولا قطعة من الرخام إلا أشجار النخيل . وقد نصب بعض البدو المتجولين خيامهم قريباً من تلك الجهة المقدسة . فدعونا للدخول ومشاركتهم في شرب القهوة . وبعد أن لبثنا معهم برهة ، سرنا على طول الجسر كما كنا إلى أن وصلنا الى خاتمة المطاف في مدة ساعتين ، وغطسنا في آخر بركة من الفيضان ، فانتعشنا وشحذنا شهوتنا للإفطار الذي تناولناه على قاعدة أكبر الاهرامات ، وهو سهل الصعود ومبني على نسق هرم خوفو ، غير أنه أقل ارتفاعاً منه (وان كان يبلغ نحو ثلاثمائة قدم) وأشد وعراً .

وبعد أن اجتزنا روابي الانقاض العالية المتجمعة من الاهرامات المديدة والتي لا يزال جزء منها محاطاً بالجدران التي يسهل تتبعها بحيث انها ترى كأنها ساحات كنائس بالضبط نزلنا الى الحجرات الأرضية للمقابر القديمة . وكان مدخل واحدة من التي زرناها بين كتل الصخر مسدوداً برمل يعوقه . وبعد أن هبطنا عشرين قدماً ، دخلنا كهفاً مظلماً ، في ساحته الخلفية بهو جميل متسع ، مقام على أعمدة . وجميع حوائطه مزينة بلوحات هيروغليفية بديعة محفورة في الحجر الجيري الصلب . وعلى السقوف آثار نقوش ملونة لا تزال حافظة لروعتها وبهائها . إلا أن محبي الفن دمروها وسطوا عليها . وفي إحدى الفجوات العميقة بئر ، فتدلى إليها الكونت (ـ ـ) بحبل . لكنه بعد أن بلغ ٤٠ قدماً ، عند نهاية الحبل ، لم يستطع أن يبصر القاع .

تقع مقابر مومیات الحيوانات (مجول ابيس والثيران والطراف والافاعي الخ) في الجهة المجاورة ، بالقرب من قرية أبي صير ، لكنا لم نهتد اليها إلا بعد بحث شاق . ثم كان لابد لنا من حبل طويل للنزول به الى الحفير المتلئ إلى النصف . فتدلیت ، ولما صحبت الى أعلى ولم أكن قد رأيت غير شيء قليل أو لم أر شيئاً ، زلقت يداي وانفلت الحبل الذي كنت أحاول الصعود به ، فسقطت الى القاع العميق بعد أن أشرفت على بلوغ القمة . وأخيراً حاولت الصعود بيدي المسلوختين سلخاً فظيعاً . ثم ركبت حماراً بكل مشقة حتى وصلت النيل . ومن حسن الحظ أن وصلنا الى المنزل بطريقه ولولا ذلك لما استطعت إمساك اللجام أبداً .

وفي منتصف الليل ، وجدنا أنفسنا واقفين أمام أبواب القاهرة . وقد حدث حادث

سعيد ، لولاه لما تمكنا من دخول المدينة مع أننا كنا نحمل كلمة السر .

بعد ذلك ، رحلنا الى عين شمس ، التي هي أون القديمة ، مدينة الفلاسفة . بالقرب من المطرية الحديثة ، فلم نجد فيها شيئاً يستحق الذكر ، غير سطح مرتفع ، به مسلة منعزلة وخرائب كثيرة . وقد كانت عودتنا سارّة حيث سرنا تحت ظلال أشجار الليخ بجانب أخدود من الماء ، متفرع من النيل . كانت الحقول ملأى بأشجار البامية والنيلة . وعند حدود قرية صغيرة محاطة بحقول شجر الخروع ، دخلنا حديقة بوسطها « مشتل » يبرز منها فوق الارض رأس مسلة هائلة ، عششت على كتاباتها الهيروغليفية الزنابير . هذا وتحيط بكتلة الجرانيت ، أشجار المشمش والخروع . ومن ذا الذي يعلم منظر المسلة داخل عمق يتراوح بين خمسين أو ستين قدماً تحت سطح الأرض الحالي وها هي الحروف المكتوبة عليها ؟

قد تعرفت إثناء إقامتي في القاهرة بعدة شخصيات ، من أعظمهم ، طبيب الباشا وهو (كلوت بك) قد تعرّفت به منذ أن زرته لأول مرة . وليس في منزله شيء ممتاز غير النعام والغزلان التي تجري في ساحته التي شاهدنا فيها أيضاً أسداً صغيراً أرسله إليه الأستاذ لبسيوس [1] من برلين تشتمل مجموعة الآثار المصرية التي عند كلوت بك على كثير من النفائس إنه رجل حر الفكر وله آراء كثيرة مستقلة بصفته طبيباً وهو يجيد التعبير عن نفسه ويشرف كرسي التدريس لو أنه كان مُتمكّناً في العلم كطلاقة لسانه في الكلام [2] وقد نال شرفاً عظيماً بسبب العمليات التي أجراها في قرح الجذام المنتشرة في الوجه القبلي وهي ليست نادرة في القاهرة . ثم انه صنّف رسالة في طريقة اجراء العملية ، كتب مقدمتها الدكتور برنر وهو طبيب له تجارب عظيمة . وكان من بين مرضاه الذين عهد إليه بمعالجته الدكتور هليدهوس وقد شاهدته يجري عمليات ناجحة في اعوجاج القدم في نفس البرم

---

(١) هو كارل ريتشارد لبسيوس (١٨١٠ — ١٨٨٤) عالم ألماني متضلع في علم الآثار المصرية وفقه اللغة . كان رئيساً لبعثة فردريك غليوم الرابع الى مصر (١٨٤٢ — ١٨٤٥) واكتشف وادي النيل في السودان (المترجم)

(٢) هو أنطون بارتلمي كلوت ويعرف بكلوت بك ولد بمدينة جرينوبل بفرنسا في ٧ نوفمبر سنة ١٧٩٣ ومات بمدينة مرسيليا في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٦٨ تالياً من العمر ٧٥ عاماً وكان طبيباً للمرحوم محمد علي باشا الكبير . وهو الذي أسس مستشفى ومدرسة الطب بأبي زعبل (المترجم)

الذي تحدد لتناولنا الطعام عند الباشا . أسرعت وعدت الى الفندق في حوالي الساعة الثانية والنصف لكني شاهدت ما أذهلني إذ وجدت مركبة الباشا التي أرسلت لنا قد غادرت المدخل . فيا للأسف ! كم كنت أريد أن أحظى برؤية الباشا في اوليسة اذ كان من المحال أن تتاح لي فرصة أخرى لأن رحيلنا من مصر كان قد أزف .

في ١٧ اكتوبر سافر الكونت ج — الى السويس لاعداد الترتيبات اللازمة مع قبطان الباخرة « هندوستان » لرحلتنا . فرافقناه عندما صار الى باب القاهرة في ساعة متأخرة من الليل ثم فارقناه عند مضرب خيام فرسان الحرس في الصحراء وتجولنا جولة سريعة في ضواحي العاصمة بقصد تكوين فكرة عامة عنها وزيارة حديقة الباشا بشبرا وقد استغرقت هذه الجولة الأيام الباقية لنا في القاهرة

في مساء ١٩ اكتوبر بعد أن عدنا من رحلتنا اليومية عند ما كنا نتناول الشاي في شرفة الفندق ، صحبنا عويلاً مؤلماً ، ممزوجاً بالعبارات والسباب باللغة الفرنسية تحت نوافذنا مباشرة وشاهدنا رجلاً بملابس بيض وبلا حذاء ، يجري هنا وهناك أمام الساقية مشيراً اشارات عنيفة وهو في حالة قنوط مخيف ، فاذا به صاحب الفندق ، مسيو كولومب وقد التف الناس حوله يسألونه الخبر فحضر بعض الخبر ان العقلاء بأيديهم المصابيح لانارة أعماق الحفر العميقة وعجلات الساقية القديمة . وكان عمق سطح الماء عشرة أقدام تحت مستوى الأرض . وتحت ذلك أيضاً طين وماء لزج على عمق ٢٥ قدماً بحيث اذا دنا أي انسان من حافة الحفرة ، سقط فيها ومات ثم لا يقدر أحد ان ينقذه

كان نزول هذه الحفرة في غاية الخطورة إذ لا بد من انقضاء زمن طويل حتى يجرؤ أي انسان على النزول . وبعد مضي نصف ساعة في محاولات كثيرة فاشلة ، تمكن بعض الحاضرين من النزول لاستخراج جثة شاب ، هو الأخ الأصغر لمسيو كولومب ، صاحب الفندق . وحالما عثروا عليه وأخرجوه ، وضعوه على الفراش . فحلنا نبابه فاذا به شيء من الحرارة . وكان الدكتور شليدهوس موجوداً معنا فحسن الحظ ساعدنا في محاولة إعادة حرارته . ثم حضر أيضاً كلوت بك بعد ان أرسلت من يستدعيه مرتين . وأخذنا نعالج الشاب طول الليل وجلسنا الى جانب سرير الميت إلى الساعة الثانية صباحاً دون أن ننقطع عن تدليكه وتدفئته

وأخيراً أيقنا أن كل مجهود إنساني لاعادة حياته كان محالاً وأن معاونتنا كانت متأخرة . فأنفقت المئية فيه أظفارها . لما عند هول تلك الليلة ! وفي الليلة التالية قسمها شيعت الجنازة ببساطة أمام باب اخوان كرلومب

قد كانت أمتعتنا أرسلت قبلنا إلى السويس في يوم ١٨ اكتوبر . وكنا قد تمكنا بفضل بعض الموظفين من الحصول على أماكن لرحلتنا في السفينة بالرغم من أن التيطاق قد رفض في بادىء الأمر أن يقبل ركاباً يزيدون عن العدد المطلوب وقد بلغنا ونحن في الاسكندرية أن كل سرير قد حجز قبل ابحار السفينة من لندن فتوقعنا الانتظار في بمباي شهراً الى أن تبحر إلى جزيرة سيلان في يوم ٢٠ اكتوبر

ولما أسدل الظلام أستاره حول الأزبكية ، شاهدنا هجن الباشا واقفة أمام الفندق فكان أحدها مسرجاً بسرج بديع ويمتاز برشاقته وهو الذي أعد لركوب الأمير . أما سائر الهجن فكانت ضخمة، فأسرعنا وركبنا ميمين الصحراء . إلاَّ أن بطء سير الهجن كان غير متحمل وعملاً حتى إننا تعبنا في آخر الربع الساعة الأول من استمرار الاهتزاز الى الامام والخلف على سروج مربوطة بقيود أو سيور وكانت الركائب عالية جداً وأقدامنا مرتفعة الى الوراء حتى تحنى كل واحد منا أن تنتهي الرحلة بأسرع ما يمكن . وقد كان التعب في الحقيقة شديداً لانني لم أكن قد نمت من الليلة الماضية المرعبة ولم أذق للراحة طعماً . فكنت أنام رغماً عن الاهتزاز العنيف الذي أشبهه بلعبة قذف الشعاب في المزام . فكان نوماً متعباً وكنت مع ذلك ، لشدة أسفي ، أستيقظ في كل مرة عند صياح السائق الذي كان يخشى سقوطي من هذا الارتفاع . بهذه الطريقة سرنا اثنتي عشرة ساعة . وأخيراً لمحنا عند أول بزوغ النهار بيتاً حسن البناء وسط الصحراء ، وكان رقم ٤ وهي احدى المحطات أو الفنادق التي بنتها شركة النقل لاستراحة المسافرين الذين يعبرون برزخ السويس بركباتهم وقد أعدت لكل مسافر على شرط أن يدفع جنيهاً انجليزياً . أما سائر النفقات فكانت غالية نسبياً . وبما إننا كنا في غاية التعب فقد بادرنا الى هذه الاستراحة وتناولنا فطوراً عظيماً واسترحنا في أسرّة جميلة عدة ساعات

وعلما فترت حرارة النهار ، ركبنا مرة أخرى دوابنا الثقيلة لمواصلة سيرنا ولم نلبث أن غشينا الليل . ثم لما لاح القمر من بين السحاب ، خضعنا لسلطان النوم وخشينا أن نتفرق . وكانت الصحراء يابسة وقاحلة . وتوجد مرتفعات بعد رقم ٤ تجري من الغرب الى الشرق . ويقال أن بها أشجاراً كثيرة معدة للصيد . إلاّ أن النباتات الوحيدة التي شاهدتها هي الشيح الشديد الرائحة وأنواعاً شتى من الحاسول ورأيت أشكالاً غريبة طافية أمامي وأنا جالس على مرجيي ، لكني لم أر ابن آوى أو الضبع أو النمر يوم حتى على مسافة بعيدة في ضوء القمر .

أخيراً وصلنا ونحن في غاية التعب الى المحطة رقم ٦ في الساعة الثالثة بعد ظهر يوم ٢٢ اكتوبر . وهنا طُلب منا جنيه ونصف ثمناً للقهوة والبيض .

وبعد أن قضينا عدة ساعات متوالية على ظهور الهجن ، طلع علينا النهار ولاح لنا نحو الشمال في ضوء الفجر الوردي ، شكل سلسلة جبال وظهر البحر الأحمر أمام عيوننا . ثم حيتنا الطيور المألوفة في ألمانيا فشاهدنا الكروان وأبا فسادة في أغلب أنحاء الصحراء وكنا قبل ذلك تمتعنا بمشاهدة صديقنا القديم العزيز ، البعجع في أسراب كبيرة بين أشجار النخل بسقارة .

وقد استجمعنا ما بقي لنا من قوة إلاّ أن هممنا كانت قد خمدت سريعاً من شدة حرارة الشمس الساطعة التي جعلت اجتيازنا على الهجن في غاية المشقة وآلمتنا أقدامنا المتوترة حتى شعرنا بأن كل مفصل قد تصلب . وفي حوالي الساعة السابعة والنصف بعد الظهر شاهدنا السويس وهي بلدة صغيرة قذرة ، خرائب تملؤها خرائب ، تلاقي العين في كل جهة . هذا والسائح يتمنى فيها عن محل يناسبه ليقيم فيه ولكن بلا جدوى .

أما ما يسمى بالفنادق هناك ، فهي أسماء بلا مسميات لأنها لا تصلح الاّ أن تكون أعشاشاً للدجاج . مع ذلك لما جاءت الساعة التي طالما انتظرناها كان سرورنا بالغاً عند ما ركبت جمالنا وهي تئن أمام أحد هذه الفنادق الحقيرة !

ثم ما كدنا نجتمع حول مائدة الفطور حتى دخل علينا قبطان الباخرة هندوستان ليقدم لنا حجراً في الباخرة كلكتا وأحسن وسائل الراحة . لقد كانت هذه أخباراً سارة لأنا كنا قد يئسنا من الحصول على جواز لجزيرة سيلان مباشرة بعد ما بذلنا من جهود

فاضلة . وقد أنجزنا كل شيء في الحال وأرسلت أمتعتنا الى الباخرة بمياي ووضعت ترًا على ظهر الباخرة هندوستان .

وتحدد يوم ٢٥ اكتوبر لرحيلنا . وفي فترة الانتظار تجولنا في الجبال المجاورة، جبال هتافة وهي تقع غربي السويس على بعد ثلاث مراحل من السهل وترتفع قليلاً عن سطح البحر وهي مغطاة بأحجار السكلس ولونها أصفر قاتم .

الى هنا تنتهي رحلة الدكتور هوفيستر في مصر وتبدأ رحلته هو وأمير بروسيا الى سيلان فالهند .